العرب والصين

علاقات ودّية وتبادل سفارات ـ وثيقة صينيّة نفيسة من عهد سلالة منغ «الكامل في وصف سواحل المحيط» تأليف ماهوان ١٤٣٣م ـ ٨٣٧هـ

ابراهيم خوري

خلفت سلالة منـغ الصينية سلالة يووان المغولية ، ودام حكمها قرنـين وثلاثة أربـاع القرن من سنة ١٣٦٨ م/٧٧٠ هـ الى ١٦٤٤م/١٠٥٤ هـ ٠ وبلغت الصين في أيام أباطرتها أوج الازدهار السياسي والاقتصادي والعمراني داخلياً ، ووصل نفوذها الى أقاصي المعمـورة خارجياً ، لا سيما في عهد الامبراطور الثالث يونـغ ـ لو (١٤٠٣ م/٨٠٦ هـ ١٤٢٤ م/ ٨٢٨ هـ) الذي قامت أساطيله الجبارة بحملات بعيدة متعاقبـة ، أخضعت جميع السـلطات الحاكمة على سواحل « المحيط »(١) وفي جزره، من الصين الى افريقية الشرقية ، مـروراً بفيتنام ، فكمبودية ، فاندونيسية ، فبنجالة ، فسيلان ، فالهند ، فجزيرة العرب ، فالسومال. وقاد تلك الحملات شنغ هو ، ودوّن ماهوان أحـداثهـا ، ووصف البلـدان التي توجهـت اليها في كتاب سماه « الكامل في وصف سواحل المحيط » وخص فيه ظفار وعدن وهرموز ومكة بأخبار وأوصاف دقيقة جداً، ضمّنها أربعة من فصوله ، وتحدث فيه أيضاً عن العرب في جاوة وعن الممالك المسلمة في ملاّقة وعاروه وسيموديره وأتجه ، وعن شؤون المسلمين ومساجدهـم في بنجالة وكشـي وكاليكـوت وجزر مالديـف ولاكديف ٠ وأكثر هذه المواضيع الطريفة ، لم يتطرق اليها الجغرافيون العرب ، فيجدر بنـا أن نطلع على مضمونهـا بعد التعـرف على الكاتب وكتابه وعلى قائد الحملات وحملاته ٠

أولا ـ ماهوان وكتابه

آ ـ حياة ماهوان Ma Huan :

لا تتضمن المصادر الصينيـة الا النـزر القليل عن حياة ماهوان ٠ فأسرتـه ، الملقبـة « مـا » عاشت في كوّيشي في مدينة شاوهسنغ، على مسافة ٢٤ ميلا تقريباً الى جنوب شرق هنغ شو ، وعلى ٧ أميال عن الشاطىء الجنوبي لخليجها الذي كان يعد أحـد مراكز الملاحـة الصينية الرئيسة في ذلك العصر ٠

ويرجَّح أن عمره لم يكن يقل عن خمسة وعشرين عاماً عندما عُيِّن لأول مرة موظفاً في الحملة الصينية الرابعة (١٤١٣ ــ ١٤١٥)، وربما كان يبلغ الثمانين عندما نشر كتابه سنة ١٤٥١ · بالتالي يُقدر أنه ولد حوالي ١٣٨٠ · وكان ماهوان حطاباً ، على حد قوله ، وهذا يعني أنه سليل أسرة متواضعة · لكنه تلقى حتماً ثقافة جيدة في أحد الكتاتيب الصينية(٢) فقد عرف الكلاسيكيين الصينيين ، وقرض الشعر ، وطالع الكتب البوذية · **واعتنق الاسلام في وقت مبكر** · واتخذ لقب تسونغ تاو · الا أن انشاءه جاء بسيطاً وبعيداً عن الأساليب الأدبية ·

ولم يشر أحد البتة الى مهنته · ولا بد أنه وقع في شبابه على شخص واسع الثقافة علّمه الخط العربي واللغة العربية أو الفارسية ، أو ربما اللهجة العربية العامية التي كان استعمالها شائعاً في التجارة على ألسنة البحريين والسفار ، في البنادر والسفن ، من الصين الى البحر الأحمر · فصار ترجماناً ماهراً · ولهذا السبب بالذات ، تم تعيينه مترجماً رسمياً ، وألحق بمساعدي شنغ هو ، عندما تلقى هذا الأخير ، سنة ١٤١٢ ، أمراً امبراطورياً بقيادة الحملة الذاهبة الى جزيرة هرموز · فكانت تلك البعثة باكورة أسفاره الثلاثة الى بلدان أجنبية عديدة في حاشية شنغ هو · وتقدر سنه آنذاك بحوالي اثنين وثلاثين عاماً ·

وقام ماهوان وزميل له يدعى كو ـ تشونغ ـ لي ، برحلات محلية داخلية في الأصقاع التي حطت فيها الأساطيل الصينية ، ودونا كلما شاهداه ، وحافظا على مذكراتهما حتى عودتهما الى الصين · ومرا في الحملة الرابعة في شمبا وجاوة وبالمبانغ وملاقة وسيموديرة وسيلان وكاليكوت وهرموز ·

ولما رجعت هذه الحملة الى الصين ، بادر ماهوان الى كتابة مشاهداته ومشاهدات رفيقه في مصنف أنجز معظمه في مدة قصيرة ، ووضع مقدمته (١٤١٦) ، وصدره بقصيدة تغنى فيها بالتقاء الشرق والغرب ثم أجرى عليه بعض الاضافات في وقت لاحق · فكان أول كاتب من أتباع شنغ هو يصف البلدان الأجنبية التي اعترفت بسؤدد الصين · وفي هذا التاريخ بالذات ، شرع هو وكوو ـ تشونغ ـ لي يذيعان ما جمعاه من طرائف عن أراضي ماوراء البحار في جميع الأوساط ·

ولم يصحب ماهوان الحملة الصينية الخامسة لأسباب لا تزال مجهولة · الا أنه رافق الحملة السادسة (١٤٢١ ــ ١٤٢٢) التي عرجت على ملاّقة وسيموديرة وسيلان وكاليكوت وهرموز وظفار وعدن · فكانت بعثته الثانية مع شنغ هو · ويرجَّح أنه أضاف وصف ظفار وعدن الى كتابه بعد عودته منها الى الصين سنة ١٤٢٢ ·

كذلك التحق بحاشية شنغ هو في الحملة السابعة (١٤٣١ ــ ١٤٣٣) ، وقام فيها برحلتين قادته الأولى الى بنجالة وساقته الثانية الى مكة ·

١ ــ ففي رحلة بنجالة ، ذهب وهونغ باو من الصين الى شيتاغونغ مباشرة في اسطول فرعي ، وزارا عدة مدن ، ثم انتقلا منها الى كاليكوت ·



٢ ـ وفي الرحلة الى مكة ، دُرج اسمه في قائمة المبعوثين السبعة الذين كلفهم هونغ باو بالسفارة • وحرص ماهوان المسلم على زيارة الأماكن المقدسة في جزيرة العرب• وغادرت بعثته كاليكوت في شهر تموز سنة ١٤٣٢ ، ووصلت الى مكة في شهر تشرين الأول ، بعد ثلاثة أشهر(٣) ، وأقامت حوالي ثلاثة أشهر أخرى في مكة ، وكرت راجعة الى كاليكوت في شهر كانون الثاني ١٤٣٣ • ولما عاد موهوان الى الصين ، أضاف وصف مكة الى كتابه •

ولا ريب أن صديقه كوو ـ تشونغ ـ لي أعانه في اعداد كتابه ، الا أن ماهوان بالذات ووحده كان يوقع جميع الوثائق الرسمية • واكتمل مصنفه بين ١٤٣٤ ـ ١٤٣٦ على الأرجح ، أي عندما ولد أحمد بن ماجد ، وقبل ربع قرن من نظمه « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » التي تتناول المواضيع ذاتها (٨٦٦ هـ/١٤٦١ م) •

ب ـ كتاب ماهوان : « الكامل في وصف سواحل المحيط » Ying-Yai Sheng-lan :

يتألف هذا المصنف من مقدمتين وقصيدة ومتن و « مستدرك » •

فالمقدمة الأولى دبجها ماهوان سنة ١٤١٦ • وذكر فيها تعيينه ترجماناً رسمياً لوثائق الحملة الرابعة ، وجمعه معلومات عن البلدان، وتدوينها في كتاب عنونه : « الكامل في وصف سواحل المحيط » • وختمها بقوله : « حرره ماهوان ، حطاب الجبال في كويشي » •

وضع المقدمة الثانية ماشنغ سنة ١٤٤٤ • وجاءت كلها ثناءاً رخيصاً على الامبراطور يونغ لو ، وقائد الحملات شنغ هو ، ومصنّف الكتاب ماهوان ، المشار اليه بلقبه الأدبي أي اسمه المستعار : « الأستاذ تسونغ تاو ما » • ولا يعرف شيء عن ماشنغ •

والقصيدة لماهوان • وفيها يفاخر بمآثر الحملة الرابعة ـ ومنها نشر الحضارة الصينية عند الأمم الأخرى وبتسهيلها التبادل التجاري بين الشرق والغرب (الهند والعرب) • وقد نُظمت سنة ١٤١٦ •

و « المستدرك » لـ « كوبو » ، وهو مراقب ومفتش امبراطوري • وكان يمكن جعل كلمته مقدمة ثالثة ، لأنها تكرر ما قيل في المقدمة الثانية • وتسمّي ماهوان باسمه المستعار « الأستاذ ما تسونغ تاو » وزميله « الأستاذ كوو ـ تشونغ ـ لي » ، وتؤكد أنهما « يعتنقان دين المربع السماوي (مكة) في المناطق الغربية » • فهل كان ماهوان ورفيقه شيخين ؟

أخيراً ، وزع ماهوان أخباره وأوصافه على عشرين عنواناً على الوجه التالي :

بلاد شمبا	بلاد سيلان
بلاد جاوة	بلاد كيلون
بلاد السماء القديمة أو بالمبانغ	بلاد كشي
بلاد سيام	بلاد كاليكوت
بلاد ملاّقة	بلاد جزر مالديف ولاكديف
بلاد عاروه	بلاد ظفار



بــلاد سيمـوديرة	بــلاد عــدن
بــلاد ناقــور	بــلاد بنجــالة
بــلاد ليتــاي	بــلاد هرمــوز
بــلاد لامــري	بلاد المربع السماوي أو مكة

وهو يتحدث في كل بلد عـن أهله وعـن عاداتهم وأديانهم ولباسهم ومأكلهم ومشربهـم ومحاصيل أراضيهم ، ولا يفوتـه أن يتكلـم عن المنـاخ ٠

ويعد ماهوان أحد سبعة رجال كتبـوا عن بحر الهنـد على مدى قـرن ونصف قبـل تحرير « رهمانج فاسكو داغامو » ، نعني : ابن بطوطة ، وانغ ــ تا ــ يو وان ، و فيي ــ هسين، وكونغ شين ، ونيكولو دي كونتي ، وأحمد بن ماجد(٤) ، لاشتراكه بالحملات الصينية بقيادة شنغ هو وتدوينه أخبارها ٠

ثانياً ــ شـنغ هـو والحمـلات الصينية

آ ــ شنغ هو أو ماهو (محمد) :

اسم شنغ هو الحقيقي ما هو أي محمد ٠وهو من أسرة عاشت في مقاطعة كون ينـغ ، الواقعة في الزاوية الجنوبيـة الغربيـة مـن بحيرة تيان شيه في يونان ٠ وكان جده الثاني يُدعى بايان ، وهو اسم مغولي ، فلعله كان أحد جنود الحامية المغولية المتمركزة في يونان وكان لقب والده « مـا » ، وينادى « بالحاج »لأنه مسلم وحج الى مكة ٠

وولد ماهو حوالي عام ١٣٧١ ٠ وكـان الولد الثاني في أسرة لديها أربع بنات ٠ وبدت أمارات النباهة عليه في صغره ٠ ولما بلغ العشرين انخرط في خدمة الأمـير تشوتي ، رابـع أنجال الامبراطور هونغ ــ وو ٠ وصار هذا الأمير امبراطوراً سنة ١٤٠٣ ، وأصبح اسمـه شنغ تسو (يونغ لو) ٠

ويشك في ثقافة ماهو ، لكنه أتقن فنون الحرب ، واشتهر بقمع فتنة في يونان ، فأنعم عليه الامبراطور يونغ لو بلقب شنغ سنة ١٤٠٤ ، ورقّاه الى منصب كبير الخصيان وناظر ديوان الخصيان ، وعيَّنه رئيس المبعوثين والقائد العام لستِّ حمـلات بحريـة أرسلت الى « المحيط الغربي » بين عامي ١٤٠٥ و ١٤٢١ .

ولما اعتلى الامبراطور جن ــ تسونغ العرش سنة ١٤٢٤ ، أوقف الحمـلات البحريـة ، وسمى شنغ هو حامي نانكين ٠ وفي عام ١٤٢٨، أمره الامبراطور هسوان تي باكمال بنـاء معبد « باو ــ ان » في نانكين ٠ وفي عام ١٤٣٠، عينه قائد الحملة السابعة والأخيرة الى المحيط الغربي ٠ وبقي حامي نانكين بعد عودته الى أن توفي فيها سنة ١٤٣٥ ٠

وهكذا خدم شنغ هو ثلاثة أباطرة ، وقاد سبع حملات صينية الى المحيط الغربي ، نفَّذ فيها باخلاص سياسة سلالة منغ التوسعية ٠



ب ــ نظرة اجمالية الى الحملات الصينية الى المحيط الغربي :

تابع الامبراطور يونغ لو ، من سلالة منغ ، سياسة توسع واضحة ، شملت ارسال حملات بحرية مهيبة الى المحيط الغربي · قاد معظمها كبير الخصيان شنغ هو · ولعل يونغ لو أراد أن يعزّز نفوذه الشخصي ، ويعرض قوته ويستدرج السفارات الى بلاده ، أو أحب أن يرسخ في أذهان العالم دور الصين القيادي في الشؤون العالمية والحضارة ، وأن يفرض سيطرة بلاده على الشرق باظهار بأسها وغناها · وربما استهدف أيضاً توسيع تجارة الصين البحرية مع الغرب (الهنود والعرب) خاصة ليؤمن دخلاً كبيراً لخزينته وأرباحاً طائلة لتجاره ، واستيراد ما يحتاجه بلاطه ووطنه بعد أن قطعت فتوحات تيمورلنغ طريق الحرير البرية ·

ومهما كانت دوافع الحملات الصينية وأغراضها ، فقد تحولت القوة البحرية لسلالة منغ الى أداة سيطرة سياسية في بحر الهند ، وتجهز رسل « عرش التنين » بأسلحتهم التامة لفرض الارادة الامبراطورية واعلان بيانات « ابن السماء » ، وتعريف الملوك بجلالته · ووزعوا هداياه الثمينة على الملوك والحكام الذين خضعوا لهم ، وبطشوا بمن رفض الهيمنة الصينية أو تردد في قبولها ·

ولما توفي الامبراطور يونغ لو عام ١٤٢٤ ، كانت سلالة منغ قد وصلت الى أوج قوتها ، وأثرت الصين وكثر سكانها · واعترف بنفوذها الحكام الأجانب على نطاق واسع لم يسبق له مثيل ، حتى ان مصر ذاتها أرسلت سفارة الى بلاط ابن السماء · واشتهرت في الشرق ، وحمت البلدان التي خضعت لها ومدتها بالأموال · وحكم حاكم صيني بالمبانغ برعاية الصين . واحتل حاكم ملاّقة ، بحماية البحرية الصينية ، بعض الأراضي التابعة الى التاي · وزارها ممثلو ٦٧ دولة ، منهم مبعوثو سبعة ملوك ، لاعلان خضوعهم الى الامبراطور · أما من رفض الاذعان ، فقد أُرهب ، واقتيد الى سجون الصين ، كما حدث لملك سيلان ولزعيمين في جزيرة شمطرة ·

وكانت الصين أعظم قوة بحرية في الشرق في مطلع القرن الخامس عشر · وكان أسطول الامبراطور يونغ لو يشمل :

١ ــ ٤٠٠ قطعة حربية ترابط قرب نانكين ·
٢ ــ ٢٧٠٠ قطعة حربية تحرس الشواطىء ·
٣ ــ ٤٠٠ مركب مسلح لنقل الحبوب ·
٤ ــ ٢٥٠ « مركب جواهر » على كل منها ٥٠٠ محارب ·

لذلك استطاع أن يعد ست حملات عظيمة ، ضخمة الحجم ، ضمت أساطيل تضمنت ٦٣ مركب جواهر وما يزيد عن ٢٨٠٠٠ محارب · كل ذلك بقيادة كبير الخصيان شنغ هو · وفرضت الصين ارادتها على أراضي امتدت من اليابان شرقاً الى افريقية الشرقية وجدة غرباً · وظهرت قوتها وغناها عندما مخرت سفنها الحربية عباب بحر الهند · وشعر الناس ببأسها حتى سيلان وجزيرة العرب · وازدهرت تجارتها الخارجية ، وحفزت حملاتها البحرية تجارتها البحرية على وجه التخصيص · ودامت حركة التنقل النشيطة منها واليها ·



الا أن وفاة الامبراطوريونغ لو أنهت عهدالبطولات في الصين الامبراطورية وتلاشت اليقظلة الكبرى ، وتبددت الروح المعنوية ، ولم يعد اللجوء الى القوة وارداً ، وبرز شعور مناهض للفتح والتوسع ٠

وتعاقبت على الصين في الميادين الخارجيةضروب الهزائم والانسحابات والتنازلات، حتى اضطر الامبراطور جن تسونغ أن يوقف حملات ما وراء البحار ٠ كذلك ساءت الأحوال الداخلية فيها ٠ لكن عندما عاد شنغ هو منحملته البحرية السابعة والأخيرة ، كانت بلاده لا تزال أعظم دولة في الشرق ٠ وقد زار شنغهو خمسين مكاناً جديداً في رحلته الأخيرة اضافة الى البلدان المجاورة مثل شمبا وتايلند٠ واعتُبر حكام كل هذه الأماكن تابعين للامبراطور ٠ وقد صحب شونغ هو في طريقعودته مبعوثون من ١١ بلداً ، ومنهم مبعوث خاص من بركات بن حسن بن عجلان ٠ شريفمكة ٠ ومكة أقصى مدينة وصل اليها الصينيون على طريق أوربة الغربية٠ كذلك كانت الصينما تزال تمتلك أقوى بحرية في الشرق تمكنها من الاستمرار في فرض سيطرتها على بحرالهند ٠

ونشطت الحملات الصينية التجارة البحرية في بحر الهند ، وسيطر الصينيون عليها ، واتصلوا بلا وسطاء بجميع بلدان السواحل ٠

وكانوا يصدّرون الحراير وضروب الخزف واللك والتحف الفنية والعملات النحاسية التي كانوا يقبلونها ثمناً لسلعهم٠ ويستوردونالكافور والذبل والمرجان والفلفل والتوابل الأخرى ، وجوز أريكا ، وخشب الصندلوالبخور والأصبغة والقطنيات وقرون الكركدن والأدوية والزجاج والقصدير وسائرمنتجات « المحيط الغربي » ٠

وقاد الحملات الستة شنغ هو الذي كانأعظم سفير في عهدي يونغ لو وهسوان تي ٠ وترأس حملة سابعة أيضاً ٠ وزار ثلاثين بلدأونيفاً ، وخلف في معظمها نقوشاً مكتوبة باللغات الصينية والتاميلية والفارسية ٠وألقى القبض على ملك في سيلان تردد في الخضوع ، وعلى زعيم قراصنة بالمبانغ وعلىمطالب بعرش سيموديره ٠ واشترك بنفسه في معركتين هو وجنوده ٠ واستعمل القوة مع الحكام الأجانب اذا خالفوا تعليماته بارسال الاتاوة الى بلاط الصين ٠ وحفل سجله بالانجازات الرائعة لبلده ٠ وحظي برضى الامبراطور التام ٠ وتشكل حملاته الى المحيط الغربي أعظم حدث في عهد سلالة منغ ٠ وكان المبعوثون الصينيون يتكنون بعده باسمهليرهبوا أصحاب السلطة في البحار الجنوبية ٠ وفي عام ١٤٣١ ، مُنح شنغ هو لقب كبير الخصيان سان باو ، ويعرف به في بلده ٠ وكان رجلا صلباً ، مهيباً ، عملاقاً ، قوياً جداً ٠ وهومنظم قدير وقائد لايعرف الخوف، وستراتيجي جريء ٠ ما زال يذكر في أنحاء كثيرة منآسية ، مثل تايلند حيث شيد معبد باسمه وتقدم له الضحايا فيه وأطلق اسمه في فرموزةعلى صنف من الزنجبيل ، وتحمل اسمه أقدم بئر في ملاقة حتى الآن ٠

وتوجه مراسيم القيام بالحملات عادةالى شنغ هو ، كبير الخصيان والمبعوثين الآخرين ٠ وتزعم شنغ هو اسميا كل الحملات التي أمر بقيادتها ، لكنه لم يسافر فيها جميعاً.



ولم يُطلب منه أن يزور البلدان النائية ٠ واذا وجد في حملة ، ائتمر بأمره بضعة عشرات ألوف المحاربين ومائة مركب ونيف ٠ فكانت قوات كبيرة تحت سلطته على الدوام ٠ وسار في أكبر حملة على رأس ٢٨٠٠٠ رجل وما يزيد عن ٣٠٠ مركب ٠

ويستلزم اعداد مثل هذه الحملات وقتاً طويلا ٠ وقد استغرق تحرك الحملات الأخيرة عاماً أو أكثر ٠ ويفرز رجال الحملة عادة من أسطول حماية نانكين وأسطول حرس الشواطىء وأسطول نقل الحبوب ٠ وتبدأ الحملة في الخريف ٠ وينطلق شنغ هو من نانكين ، ويرافق المبعوثين الأجانب العائدين الى بلدانهم ٠

وتخرج السفن من حوض بناء « مراكب الكنوز » الواقع الى شمال غرب نانكين وتجري ببطء في نهر ينغ تسي الى ليوشياشيانغ ، حيث ينظم شنغ هو أسطوله ويشرع بتقديم الضحايا في معبد ربة البحر ٠

وتسير أربعة أسابيع الى ثمانية أسابيع حتى تصل الى مرسى تاي ينغ قرب مصب نهر مين في ولاية فوكيين ٠ وتبقى هنالك بضعة أشهر حتى كانون الأول ـ كانون الثاني ، الى أن تهب الموسميات الشمالية الشرقية ٠ وتقام أثناء ذلك الصلوات الى الآلهة ٠ ثم تبتعد المراكب عن ساحل الصين ، وتجري بأشرعتها المفتوحة في الليل ٠

وتستغرق الحملة حوالي سنتين ٠ ويزور الأسطول عادة كوين نهون في شمبا ، ثم ينطلق الى سور ابايا في جاوة ، حيث ينتظر حوالي أربعة أشهر هبوب الريح المولة في تموز ٠ ويذهب بعدها الى بالمبانغ (في شمطرة) فسيلان ، فكاليكوت ، وفي الحملات اللاحقة ، الى هرموز ، فيصلها في كانون الثاني التالي ٠ ويرجع الأسطول في شهر آذار ، ويمر في مضيق سنغافورة ويبلغ نهر ينغ تسي خلال شهر تموز ٠ وتنفصل بعض المراكب عن أسطول الرحلة الرئيسي ، وتزور أماكن أخرى في بنجالة وجزيرة العرب وافريقية الشرقية حتى ملندي ٠

وفيما يلي عرض يوجز الحملات الصينية السبع ، ويصف مراكبها وعدتها وعددها ورجالها ، ويحلل أسباب فشل الصين في فرض التبعية الدائمة على بلدان بحر الهند ونجاحها في ابقاء صلات تجارية قوية في « المحيط الشرقي » ٠

جـ ـ موجز الحملات الصينية في بحر الهند(٥) :

١ ـ الحملة الصينية الأولى : ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م ـ ٨١٠ هـ/١٤٠٧ م : آخر مراحلها كاليكوت :

صدر مرسوم هذه الحملة في ١١ تموز عام ١٤٠٥ ٠ ووجه الى شنغ هو وزملائه الخصيان ٠ وضم أسطولها ٣١٧ مركباً (ينك)، منها ٦٢ مركب جواهر ٠ وبلغ عدد الضباط الصغار والجنود والمدنيين والتجار والكتبة فيها ٢٧٨٧٠ شخصاً ٠ وزار شنغ هو خلالها جاوة ، وسيموديرة ، ولمبري (أتجه) وسيلان قبل بلوغه هدفه الأخير ، أي كاليكوت التي يحكمها الملك ساموتيري (السامري ومعناه ملك البحر) ٠ وذهب شنغ هو أو صحبه الى

شمبا وملاَّقة وعاروه وكيلون · وأقاموا في كاليكوت حوالي أربعة أشهر من شهر كانون الأول عام ١٤٠٦ الى شهر نيسان عام ١٤٠٧ · وأهدى شنغ هو أمراء البلاد التي مر بها أسطوله هدايا نفيسة من الحراير المطرزة بالذهب · وأخضع بالقوة من لم يقبل بالتبعية للامبراطور · وفي طريق عودته ، رافقه مبعوثون من كاليكوت وسيموديرة وكيلون وعاروه وملاَّقة وممالك أخرى ، وأعلنوا تبعيتهم الى يونغ لو في عاصمته ، وقدَّموا له اتاوة من منتجات بلدانهم ·

وحصل حدث بارز في طريق العودة في هذه الحملة في بالمبانغ ، اذ نشبت معركة حامية الوطيس بين شنغ هو وقواته من جهة وبين زعيم القراصنة وقواته من جهة أخرى ، انتصر فيها شنغ هو على سين سووى وقتل مايزيد على خمسة آلاف من قراصنته ، وأخذه هو أسيراً الى الصين وأعدم في نانكين · وأحرقت قوات شنغ هو أو غنمت ١٧ مركباً · وعادوا الى عاصمتهم في ٢ تشرين الأول عام ١٤٠٧ وتأخروا ثلاثة أشهر عن ميعادهم بسبب قتال القراصنة ·

٢ ـ الحملة الصينية الثانية : ٨١٠ هـ/١٤٠٧م ـ ٨١٢ هـ/١٤٠٩م: آخر مراحلها كاليكوت

صدر مرسوم هذه الحملة في ١٣ تشرين الأول عام ١٤٠٧ ، ووجه الى شنغ هو ، وونغ شنغ ـ هونغ ، وهو هسين · فطلبوا ٢٤٩ مركباً ولم تتحرك مراكبهم حتى شهر كانون الثاني أو شباط عام ١٤٠٨ · ومرت بتايلند وجاوة وعاروه ولمبري وكويمباتور وكايال وكوشين · وانتهت بكاليكوت ، وبقيت فيها حوالي أربعة أشهر من شهر كانون الأول عام ١٤٠٨ الى شهر نيسان عام ١٤٠٩ · وعاد الأسطول الى الصين في آخر صيف عام ١٤٠٩ · ولم يخرج شنغ هو فيها ·

٣ ـ الحملة الصينية الثالثة : ٨١٢ هـ/١٤٠٩ م ـ ٨١٤ هـ/١٤١١ م : آخر مراحلها كاليكوت

صدر مرسومها بين ١٦ كانون الثاني و ١٤ شباط عام ١٤٠٩ م · وجه الى شنغ هو ، وونغ شنغ ـ هونغ ، وهو هسين · وقادها شنغ هو · وبلغ عدد مراكبها ٤٨ ينك ، ورجالها ٣٠٠٠٠ شخص · وخرج الأسطول من ليوشيا شيانغ في الشهر القمري التاسع (٩ تشرين الأول ـ ٦ تشرين الثاني ١٤٠٩ م)، ووصل الى شنغ لو في الشهر القمري العاشر (٧ تشرين الثاني ـ ٦ كانون الأول ١٤٠٩ م)، وانطلق الى البحر في الشهر الثاني عشر القمري (٥ كانون الثاني ـ ٣ شباط عام ١٤١٠ م) من ووهوفين عند مدخل نهر مين ، في ولاية فوكيين ، وأشرع ١٢ قلعاً ، وبلغ شمبا بريح مولة بعد مرور عشرة أيام وعشر ليالي ·

وزارت هذه الحملة شمبا وجاوة وملاَّقة وسيموديرة وسيلان وكوشين وكاليكوت · وتوقفت في فولوسنبيلن · وترك شنغ هو في سيلان لوحة منقوشة مكتوبة بالصينية والتاميلية والفارسية · وأهدى معبد بوذا هدايا نفيسة باسم الامبراطور · وفي طريق العودة نشبت معركة بين قوات شنغ هو وقوات الملك السيلاني الاغا كورنارا ، ملك مملكة راييغاما قرب مدينة كولومبو · وانتصر شنغ هو بعد قتال مرير ، وأسر الملك وزوجه وأبناءه

وموظفيه الكبار ، واقتادهم أسرى الى الصين التي عاد اليها في ٦ تموز عام ١٤١١ م . وهنالك عفا الامبراطور عن ملك سيلان وأعاده الى مملكته .

٤ ـ الحملة الصينية الرابعة : ٨١٦ هـ/١٤١٣ م ـ ٨١٨ هـ/١٤١٥ م : آخر مراحلها هرموز

صدر مرسومها في ١٨ كانون الثاني عام ١٤١٢ م ، وقادها شنغ هو نفسه ، وضمت ٦٣ مركباً و ٢٨٥٦٠ شخصاً . وخرج شنغ هو من نانكين في خريف عام ١٤١٣ م ، وابتعد عن ساحل فوكيين في كانون الثاني عام ١٤١٤ م . ومرت هذه الحملة بشمبا وكيلنتن وفهنج وجاوة وبالمبانغ وملاقة وعاروه وسيموديره ولمبري وسيلان وكايال وجزر الذيب وكوشين وكاليكوت وهرموز . وهذه هي المرة الأولى التي يتجاوز شنغ هو فيها الهند . وانفصلت عدة مراكب عن الأسطول وذهبت الى بنجالة . وأمر يونغ لو شنغ هو أن يحارب الغاصب اسكندر الذي استولى على عرش سيموديرة من السلطان الشرعي زين العابدين ويعيد هذا الأخير الى ملكه . وانتصر شنغ هو على قوات المغتصب التي بلغت عدة آلاف ، ولاحقه الى لمبري ، وأسره هو وزوجته وابنه واقتادهم أسرى الى الصين حيث أعدم اسكندر . وعاد شنغ هو الى بلده في ١٢ آب عام ١٤١٥ م .

٥ ـ الحملة الصينية الخامسة : ٨٢٠ هـ/١٤١٧م ـ ٨٢٢ هـ/١٤١٩ م : آخر مراحلها هرموز، عدن ، ملندي

صدر مرسومها في ٢٨ كانون الأول عام ١٤١٦ م . وكان هدفها الأول ، ظاهرياً ، حراسة سفراء بعض البلدان الذين قدموا الى الصين في ١٩ تشرين الثاني عام ١٤١٦ م ، وهدفها الثاني تقديم هدايا الامبراطور الى حكام تلك البلدان ، وهي شمبا ، فهنج ، جاوة، بالمبانغ ، ملاقة ، سيموديرة ، لمبري ، سيلان ، جزر الذيب ، كوشين ، كاليكوت ، شاليواني ، هرموز ، لاسا أو لأسا قرب المكلا ، عدن ، مقدشوه ، براوه ، ملندي . ولم نحصل على عدد مراكبها ولا أفرادها .

وترك أسطولها ساحل الصين في خريف عام ١٤١٧ م ، ووصل لأول مرة الى ساحل افريقية الشرقية . واضطر شنغ هو أن يعرض قوته العسكرية في لاسا ومقدشوه . وعاد الى الصين في ٨ آب عام ١٤١٩ م .

٦ ـ الحملة الصينية السادسة : ٨٢٥ هـ/١٤٢١ م ـ ٨٢٦ هـ/١٤٢٢ م : آخر مراحلها هرموز عدن براوة

صدر مرسومها في ٣ آذار عام ١٤٢١ م . وأعيد فيها سفراء هرموز وغيرها الى بلدانهم بعد انتظار طويل . وهذه البلدان هي ملاقة وعاروه وسيموديرة ولمبري وكويمبانور، وكايال وسيلان ، وجزر الذيب وكوشين وكاليكوت وهرموز وظفار ولاسا وعدن ومقدشوه وبراوه .

وضمت الحملة ٤١ مركباً ، وكانت قصيرة نسبياً : عشرة أشهر . وانقسمت في سيموديرة . وذهب الخصي شو منها الى عدن بثلاثة مراكب وقدم هدايا الى ملك اليمن الناصر أحمد (١٤٠٠ ـ ١٤٢٤ م) .

٧ ـ الحملة الصينية السابعة : ٨٣٥ هـ/١٤٣١ م ـ ٨٣٧ هـ/١٤٣٣ م : آخر مراحلها هرموز وسفارة الى مكة .

صدر مرسومها في ٢٩ حزيران عام ١٤٣٠ م . ووجِّهت الى شنغ هو خاصة . وضمت أكثر من مائة مركب و ٢٧٥٥٠ شخصاً بين ضباط وجنود وبحارة وأطباء وحرفيين .

وخرجت المراكب من جون التنين في نانكين في ١٩ كانون الثاني عام ١٤٣١ م . ووصلت الى ليو شيا شيانغ في ٣ شباط ١٤٣١ ، وحطت في مرسى ماوين في مصب نهر مين وانطلقت في البحر منه ومرت بكوي نهون في شمبا (٢٧ كانون الثاني عام ١٤٣٢ م) وبسورابايا (٧ آذار) وبالمبانغ (٢٤ تموز) وملاقة (٣ آب) وسيموديرة (٢٨ تشرين الثاني) ، وانتهت الى كاليكوت في ١٠ كانون الأول عام ١٤٣٢ م . وانتقلت الى هرموز ووصلتها في ١٧ كانون الثاني عام ١٤٣٣ م . (بعد سير ٣٥ يوماً في البحر) . وكر الأسطول عائداً في ١٩ آذار عام ١٤٣٣ عبر بحر العرب، فوصل الى كاليكوت في ٣١ آذار، ثم مر بسيموديرة (٢٥ نيسان) ، فملاقة ، فكون لون ، فكوي نهون في شمبا ، وفي ٢٢ تموز كانوا في بكين . ويشار الى أن الحملة أمضت ثلاثة أيام في جزر ناج باري . ويروي تاريخ سلالة منغ أن شنغ هو زار لاسا في جنوب جزيرة العرب ،وذهب مبعوثه الى ظفار ولاسا وعدن ومكة في جزيرة العرب . وكان الخصي هونغ يقود فرقة من الأسطول في كاليكوت . وأرسل سفارة ضمت ماهوان الى مكة . كذلك جرت مراكب أخرى من هرموز الى عدن والموانىء الافريقية ، وربما الى لاسا . ويقال ان بعض المراكب انفصلت عن الأسطول في كاليكوت وأتت الى البنادر العربية . أخيراً يظن أن الصينيين أبحروا مباشرة من كيلون الى مقدشوه ومن سيلان الى براوة .

★ ★ ★

يتضح بجلاء من موجز هذه الحملات أن الصينيين بدأوا بفرض الأمن والتبعية على البلدان الواقعة على طرقهم البحرية في المحيط الشرقي وحتى كاليكوت ، في الحملات الثلاث الأولى . فقضوا على القرصنة في مضيق ملاقة ، وثبتوا مراكز الملوك الشرعيين ضد الغاصبين ، وبطشوا بكل من رفض تبعيتهم . ولما اطمأنوا الى استتباب الأمر والأمن لهم ، انتقلوا الى المرحلة الثانية ، وهي بسط سيطرتهم على المحيط الغربي في هرموز وسواحل جزيرة العرب وساحل افريقية الشرقية حتى ملندي . ولم يحتاجوا الى دخول معارك في المحيط الغربي في الحملات الأربع اللاحقة ، وخضع لهم العرب والأفارقة . وبذا أصبح الصينيون أسياد بحر الهند من أقصاه في الشرق الى أقصاه في الغرب في افريقية وحتى في بحر القلزم . وقد تم لهم كل ذلك بأسطول هائل منظم ورجال أشداء مدربين . وهذا ما سنتحدث عنه الآن .

د ـ أسطول الحملات الصينية وقوته البشرية وطرقه البحرية(٦) ٠

لا يملك الباحث الا القليل من المعلومات الموثوقة عن النواحي الفنية لمراكب أساطيل الحملات الصينية في بحر الهند ٠ أما عن قوتها البشرية وطرقها البحرية ، ففي متناول يده ما يكفيه ليأخذ فكرة عامة عن هذين الموضوعين ٠

١ ـ مميزات مراكب الحملات الصينية في بحر الهند :

بنيت معظم مراكب الحملات في حوض لو نغ شيانغ في نانكين ٠ الا أن خبراء هذا الحوض عجزوا عن بناء سفن مماثلة لها بعد مرور مائة عام ، ولم يعرفوا حتى مواصفاتها ٠

وكانت مراكب حملات شنغ هو تسمى« مراكب الجواهر أو الكنوز » لأنها رجعت الى الصين بثروات لا تحصى ٠ وقد ورد في تاريخ منغ أن ٦٢ مركباً ضخماً بنيت للحملة الأولى ٠ لكن لا يجوز أن يتصور الباحث أن جميع سفن شنغ هو كانت من فئة واحدة ٠

(١) ـ فئات مراكب الجواهر :

فقد ذكرت المصادر الصينية أن القوة البحرية الصينية في عهد سلالة منغ كانت تمتلك ٢٥٠ سفينة جواهر تتوزع على سبع فئات في الحد الأدنى ٠ وهي :

- فئة مراكب الأشرعة التسعة ويبلغ طولها ٤٥٢ قدماً ٠
- فئة مراكب الأشراعة الثمانية أو سفن نقل الخيول ، وطولها ٣٧٦ قدماً ٠
- فئة مراكب الأشرعة السبعة أو سفن التموين وطولها ٢٨٠ قدماً ٠
- فئة مراكب الأشرعة الستة أو سفن نقل الجنود وطولها ٢٤٠ قدماً ٠
- فئة مراكب الأشرعة الخمسة أو سفن القتال وطولها ١٨٠ قدماً ٠
- فئة مراكب الأشرعة الأربعة وطولها ١٤٦ قدماً ٠
- فئة مراكب الأشرعة الثلاثة وطولها ١٣٠ قدماً ٠

(٢) ـ أبعاد مراكب الحملات وأحجامها :

ولا يقبل جميع الخبراء البحريين بأرقام المصادر الصينية السابقة ٠ فبعضهم يظن أن مراكب شنغ هو الضخمة كانت أبعادها في الحد الأعظم ٣٠٠ قدماً (حوالي ٩٠ متراً) طولا و ١٥٠ قدماً (حوالي ٤٥ متراً) عرضاً، وحمولتها ٣١٠٠ طن ٠ هذا الى جانب حمولات ١٢٥٠ و ١٠٠٠ طن ٠

ويشيرون أيضاً الى وجود مراكب صينية حمولتها ألفان لياوو (١ لياوو = ٥٠٠ ليبرة) وألف لياوو ، أي ٤٥٠ طناً و ٣٠٠ طن ، والى مراكب نقل الماء ٠

وكانوا يقولون في القرن السادس عشر ان طول المركب ذي الشراع الواحد لا يجوز أن يتعدى ٥٦ قدماً (١٧ متراً) وطول المركب ذي الشراعين ٩٠ قدماً أي ٢٧ متراً ٠

في جميع الأحوال ، لا تضاهي المراكب البرتغالية (٣٠٠ طن) المراكب الصينية ، ولا المراكب الانكليزية (٤٠٠ طن) ولا العربية (٢٠٠ طن) في القرن الخامس عشر ، الا اذا ظهرت وثائق جديدة تقلب المفاهيم ٠



٢ ــ القوة البشرية في الحملات الصينية :

لكــن لا يشك أحــد بضخامــة المراكب الصينية ، ولا سيما أن عدد الأفراد المشتركين في الحملة الواحدة كان يتراوح بــين ٢٧٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ شخص ، نقلهم عدد من المــراكب تفاوت حسب الحملات على الوجه التالي :

١ ــ الحملة الأولى	:	٣١٧ مركباً
٢ ــ الحملة الثانية	:	٢٤٩ مركباً
٣ ــ الحملة الثالثة	:	٤٨ مركباً
٤ ــ الحملة الرابعة	:	٦٣ مركباً
٥ ــ الحملة الخامسة	:	؟ ؟ ؟ غير محددة
٦ ــ الحملة السادسة	:	٤١ مركباً
٧ ــ الحملة السابعة	:	أكثر من ١٠٠ مركب ٠

وشملت تلك القوة البشرية من أصل ٢٧٠٠٠ شخص في احدى الرحلات :

٧	مبعوثين رئيسيين	٢	أمــين ســر
١٠	معاونين للمبعوثين	١	أمين سر ديون الوارد
٥٣	خصيّاً عاديــاً	٢	خبــير مراسم
٢	قائــد لــواء	١	مراقب نجــوم
٨٣	رائـــداً	٤	منجمين (علماء هيئة)
١٠٤	مــلازم أول	١٨٠	طبيب ومعاون طبيب
١٠٣	مــلازم ثان		

وضمت هذه القوة البشرية بحارة ممتازين وملاحين ومعلمين يتقنون استعمال أدوات الملاحة كالبلد وصليب القياس والابرة المغناطيسية ، ويعرفون سائر شؤون الملاحة ٠

٣ ــ طرق الحملات في بحر الهند(٧) :

واتبعت الأساطيل الصينية في حملات بحر الهند الطرق الشاطئية تارة ، وطرق الباحــة طوراً ٠ وكانت الريــاح الموسمية تتحكــم في حركتهــا ، وينتظرهــا الصينيــون ثلاثة أشهر وأحياناً أربعة ، ولا يسيرون الا عند هبوبها ٠

١ ــ وكانوا يجارون شاطىء الصــين حتى مصب نهر مين ٠
٢ ــ ثم ينطلقون في البحر حتى شمبا ٠
٣ ــ ويذهبون من شمبا في الباحة الى سورابايا في جاوة ٠
٤ ــ ويتوجهون من جاوة الى بالمبانغ في شمطرة ثم ملاقة ثم اتجه ٠
٥ ــ ويقطعون البحر من أتجه الى سيلان ٠ وقد يذهبون من أتجه أو شمطرة مباشرة الى عدن أو الى ساحل افريقيــة الشرقية ٠



٦ ـ ويقلعون من سيلان الى كاليكوت ، ويبحرون من كاليكوت الى هرموز أو بر العرب أو ساحل افريقية ٠

وتعني هذه الطرق أنهم كانوا يقطعون بحر الهند من أي جهة يشاؤون ، وبالتالي آن اهتداءهم بالكواكب كان دقيقاً جداً ومتقدماً جداً ٠ وهذا ما أثبتته رحلاتهم وتثبته وثائقهم الملاحية التي لا حاجة الى شرحها الآن ٠

هـ ـ فشل الحملات الصينية في الهيمنة على بحر الهند :

وهكذا نرى أن الحملات الصينية استمرت بثبات من عام ١٤٠٥ م الى عام ١٤٣٣ م أي أكثر من ربع قرن ٠ وضمت ما يقرب من ألف مركب من أحجام متباينة تتراوح حمولتها الاجمالية بين مائة ألف ونصف مليون طن على مدى رحلاتها السبع ، نقلت في تلك الأسفار ٢٠٠٠٠٠ شخص ، منهم المحاربون المشاة والخيالة مع جيادهم المحمولة في سفن خاصة ٠ وصرفت الصين أموالا طائلة لاعداد هذه الحملات ، وأنفقت عليها طيلة الـ ٢٨ سنة التي تنقلت فيها في بحر الهند ٠

ويرفض العقل اعتبار هذه الحملات الباهظة التكاليف ، رحلات اقامة علاقة سياسية مع بلدان سواحل بحر الهند ، لأن وجود قوات مسلحة تسليحاً تاماً وبأعداد كبيرة في الأساطيل يستبعد رغبة تحقيق أغراض دبلوماسية ، الا اذا افترضنا أن تلك القوات أرسلت لحماية مبعوثي الامبراطور واظهار عظمة الصين ٠

ولا يقبل العقل أيضاً أن يسلم بأن الحملات الصينية كانت أسفاراً تجارية ، لأن التجارة في القرن الخامس عشر لا تستلزم مراكب تعد بالخمسينات ولا بالمئات ، ويحمّل المركب الواحد منها ٣٠٠٠ طن ان كان ضخماً وما لا يقل عن ٣٠٠ طن اذا كان صغيراً ٠ ولم يسبق أن سجل تاريخ تجارة بحر الهند أساطيل بهذه الضخامة أو سفناً تحط في بنادره بهذا العدد المذهل ٠

وحقيقة الأمر أن الحملات الصينية عمليات عسكرية مدروسة ومنظمة ومجهزة بدقة غايتها فرض هيمنة الامبراطورية الصينية على بحر الهند وبلدانه ، من اليابان الى بر الزنج مروراً ببلدان الشرق الأقصى والهند والسند وبر العرب ، ووصولا الى ملندي ٠ والأدلة على نوايا الصين التوسعية وقائع ثابتة ، منها :

١ ـ القوة الكبيرة المحمولة على مراكب الأساطيل الصينية ٠ وقد تراوح عددها حوالي ٣٠٠٠٠ رجل وقال بعض المؤرخين الصينيين بل ٣٧٠٠٠ رجل ٠ وفي حديث ماهوان ، أحد المؤرخين الذين رافقوا شنغ هو عن عدن ، يقول : « وفي هذه البلاد جيش قوي جداً ، قوامه سبعة الى ثمانية آلاف رجل من مشاة وخيالة ٠ لذلك تخافها البلدان المجاورة لها ». فاذا كان جيش عدن الصغير مرهوباً ، فما بال جيش شنغ هو الذي يبلغ عدده ثلاثة أمثال جيش عدن ؟



٢ ـ قضت قوة المراكب الصينية على القراصنة اليابانيين ، وعلى قراصنة شمطرة (عددهم خمسة آلاف في مضيق ملاقة وحدها) ·

٣ ـ هزمت قوة المراكب الصينية جيش ملك سيلان وأسرته · واذا كان الامبراطور يونغ لو قد عفا عنه وأعاده الى بلده ، فانه نصّب في سيلان ملكاً آخر اسمه باراكاناباهو راجا ، وظل الملك الجديد يدفع اتاوة الى الصين بانتظام حتى عام ١٤٦٢ ·

٤ ـ كادت هذه القوة اياها أن تتدخل في جنوب جزيرة العرب وفي ساحل افريقية الشرقية ،لكن سويت الأمور بلا قتال ·

٥ ـ فرض المبعوثون الصينيون على جميع أصحاب السلطة في البلدان التي زاروها ـ ولم يوفروا أحداً ـ أن يدفعوا اتاوة وأن يسافروا أو يرسلوا مندوبين عنهم ليعلنوا تبعيتهم لأمبراطور الصين في عاصمته ·

ويؤيد تسلسل الأحداث التاريخية سعي الصين المتواصل للسيطرة على « المحيط الغربي » وسواحله في سيلان والهند أما صلات الصينيين بالعرب ، فظلت متميزة ولا يبدو أنه طرأ عليها تغيير في القرن الخامس عشر ·

١ ـ الصين وسيلان :

وتعود العلاقات بين الصين وسيلان الى مطلع القرن الخامس الميلادي (٤٠٥) ، عندما ذهبت سفارة ملك سيلان وقدّمت الى الأمبراطور صورة بوذا مرصعة بالحجارة الكريمة · وتوالت بعثات سيلان الى الصين في أعوام ٤٢٨، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٥٦ م ·

وأعلن ملوك سيلان في القرن السادس أنهم أتباع امبراطور الصين ، وأبلغوه قرارهم عام ١٥٠٥ وتتابعت سفارتهم اليه في أعوام ٥٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ وأرسلت سيلان مندوبين عنها عام ٦٧٠ م و ٧١١ م ·

وفي عام ٧٤٢ م ، وصل الى الصين تجار جاؤوا بطريق البحار الجنوبية وجلبوا من سيلان (مملكة الأسود) سلعاً ثمينة أهدوها الى الامبراطور الصيني · ثم انقطعت الصلات حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، عندما عاد السيلانيون الى استيراد البضائع الصينية ، وصار جنود صينيون يخدمون في جيش ملك سيلان ·

أما في بدء القرن الخامس عشر ، فقد تصرف الأمبراطور يونغ لو وكأنه يرمي الى اعادة النفوذ الصيني الى سيلان ·

٢ ـ الصين والهند :

أما العلاقات بين الصين والهند فأقدم من علاقات الصين والسيلان ، وتعود بدايتها الى عام ١٢٢ قبل الميلاد ·

وقد أرسل كثير من ملوك الهند هدايا الى امبراطور الصين في القرن الأول والثاني للميلاد · ثم انقطعت البعثات الهندية في القرنين الثالث والرابع ·



ونشأت تجارة بحرية بين الصين والهند في أواخر القرن الرابع . وعاد ملوك الهند لاسيما البوذيون منهم ، الى ارسال مندوبين وهدايا في القرن الخامس .

واجتاحت الصين الهند ، وأخضعتها في القرن السادس . وفي القرن الثامن استأنف ملوك الهند ارسال السفارات .

وقوي التبتيون في القرن التاسع وهددوا الصين ، فاستنجدت هذه الأخيرة عام ٧٨٧ م بالأتراك الأويغور وملوك الهند والعرب ، دون جدوى .

وانقطعت سفارات الهند حتى القرن الخامس عشر . اذن هنا أيضاً ، يتحرك الصينيون ضمن اطار سوابق تاريخية ودينية .

٣ ـ الصين والعرب :

وصلات الصين بالعرب قديمة ، نشير الى بعض ما ورد منها في الوثائق التاريخية . فحمزة الأصفهاني والمسعودي ذكرا أن مراكب الهند والصين كانت تصل الى الحيرة عبر الفرات(٨) . ثم صارت تقف عند الأبلّة ، وتراجعت بنادر رسوها مع الزمن الى البصرة فسيراف فجزيرة قيس فهرموز(٩) .

وتروي الحوليات الصينية لسلالة تنغ (٦١٨ ـ ٧٠٧) في القرنين السابع والثامن أن الينك الصينية كانت تأتي من كانتون الى الفرات ، وتمر بسيلان وملبار وكمباية وديو وسيراف ، وتحط في مصب نهر الفرات . ثم تحولت المراكب الصينية عن خليج العرب وصارت تسافر الى عدن ، التي أصبحت مستودع تبادل السلع بين الصين والعرب .

وأسس العرب مركز تجارة في مدينة كانتون ، لا يعرف أحد تاريخ انشائه ، لكنه كان قوياً جداً في منتصف القرن الثامن (٧٥٨م) . كذلك كثروا في مدينة خانفوه(١٠) .

وقامت اتصالات برية وسفارات بين الخلفاء الأمويين (الوليد) والعباسيين (المنصور وهارون الرشيد) وبين الصين التي استنجدت بالعرب ضد التبّتيين ونصروها . واستنجد الساسانيون (يزجرد الثالث) بالصينيين ضد العرب في القرن السابع ، فنصحوهم بالتفاهم معهم مثلما ذكر الطبري .

وتقلصت العلاقات التجارية مع الصين مباشرة وصار معظمها يتم عن طريق الهند حتى القرن الخامس عشر . وفي هذا القرن تبادلت الصين الهدايا مع اليمن وشريف مكة ، لكن الأساطيل الصينية كادت تصطدم بالعرب قرب المكلا وفي عدن .

وهكذا أثبتت أحداث القرون الغابرة ووقائع القرن الخامس عشر أن الصين حاولت بالسيف الحاق بحر الهند وبلدانه الساحلية بتبعيتها . لكنها فشلت في الماضي والحاضر ، وتوقفت الحملات البحرية وعرض القوة والتهديد باللجوء اليها بعد وفاة الامبراطور يونغ لو وخلفه . ولم يدرك البلاط الصيني فيما يبدو أهمية الدولة البحرية العظمى الدائمة .



و ـ مكاسب الصين وفوائد الأمم من الحملات الصينية ٠

فهل يعني فشل الصين عملياً في فرض احتلالها العسكري المكشوف ، مثلما فعلت في شمطرة وفي سيلان ، أو المستور في باقي الأماكن ، اخفاقها في سائر الميادين ؟ كلاً ٠ فقد حققت لنفسها مكاسب جمة ، وجنت الأمم الأخرى فوائد جليلة ٠

١ ـ مكاسب الصين من حملاتها البحرية :

فالمكسب الأول للصين جغرافي ، اذ حصلت على أخبار صحيحة ودقيقة ومستفيضة عن جغرافية بحر الهند وجزره وسواحله ،تختلف كلياً عن حكايات السفار وروايات الرحالة المنمقة ٠ وشملت تلك المعارف النبات والحيوان والثروات المعدنية والمحاصيل الزراعية وأحوال الشعوب وأديانها ولغاتها ، الى جانب الظواهر الطبيعية كالمناخ والمياه وغيرها (قاسوا الندى في مكة فبلغ ثلث انش في الليلة الواحدة) ٠

والمكسب الثاني تجاري لأنهم تعاملوا مع كل بلد مروا به مباشرة وبلا وسطاء ٠ فباعوا كميات السلع الصينية الهائلة التي حملوها معهم مثل أصناف الحرير والخزف ، واشتروا بأثمانها بضائع محلية مثل الحجارة الكريمة والمعادن والأدوية والأسود والفهود والخيول والزرائف والحمر الوحشية المقلمة والابل والنعام والمنسوجات القطنية واللآلىء ٠

والمكسب الثالث علمي ملاحي فلكي تطبيقي ٠ فالصين أسهمت في تقدم علم الفلك على نطاق واسع ، ولمع علماء الهيئة عندها منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وراقبوا عياناً ١٤٠٢٠ كوكباً مقابل ١٠٢٢ عند بطلميوس. ولملاحيهم نجومهم وقياساتهم وأدواتهم الخاصة التي تذكر بالنهج الملاحي العربي ، حتى فيما يختص بالبوصلة المسماة الابرة المغناطيسية المائية ٠ وكانوا يطبقون الهداية بالنجوم في المياه البحرية القريبة من برهم ٠ وأتاحت لهم رحلات القرن الخامس عشر أن يختبروا علمهم الملاحي في جميع أنحاء بحر الهند ، وتثبتوا من صحته وتعلموا طرقاً بحرية جديدة أوصلتهم الى جزيرة العرب وملندي ٠ فأصبح معالمتهم وتجارهم قادرين على القيام بأسفار فردية يكتنفها الحد الأدنى من الأخطار والمغامرة ٠

والمكسب الرابع « اعلامي » ، اذ لم تعد الصين بلاد الواق واق المجهولة التي تروى عنها الأساطير والخرافات ، بل شاهدت جميع شعوب البحر الهندي أهلها ، ورأت عظمتها وشعرت بغناها ٠

٢ ـ فوائد الأمم من حملات الصين البحرية :

اذن فشل الصينيون في الاحتلال العسكري، لكنهم استفادوا في نواحي عديدة أخرى وأفادوا سائر الأمم أيضاً ٠

وجنت بلدان سواحل بحر الهند ، بمعناه الواسع دوماً ، فائدة أولى عظيمة ، تمثلت في نشر الأمان والاطمئنان على جميع الطرق البحرية المؤدية الى بلدان تحت الريح والى الصين نفسها بعد أن قضوا قضاء تاماً على أعمال القرصنة ٠



والفائدة الثانية هي أن الصينيين الذين جاؤوا فاتحين ، أصبحوا فئة من الفئات التي تبحر في بحر الهند بلا امتياز ولا تسلط ، لا بل ان واقعاً جديداً تكرس في الملاحة ، تؤيده المصادر العربية ، ويتلخص فيما يلي :

١ ـ بحر الهند بحر مفتوح لجميع الأمم ، لايعترض أحد أحداً · وأفاد كثيرون من هذه الحرية الممنوحة للكل بلا استثناء · لكن

٢ ـ اختص معالمة الصين بالنقل والتجارة حتى جاوة وشمطرة وملاقة وبأسفار نادرة في المحيط الغربي ·

٣ ـ اكتفى أهل الهند وسيلان ومعالمة تحت الريح بخليج البنغال وبأسفار قليلة في المحيط الغربي ·

٤ ـ وانفرد العرب والفرس بالمحيط الغربي وخليج العرب وبحر القلزم وبأسفار قليلة الى بحر الزنج والمحيط الشرقي ·

٥ ـ وبقي معالمة الزنج أسياداً في بحر الزنج حتى سفالة وجزيرة القمر، ونادراً مايسافرون الى جزيرة العرب أو غيرها ·

بالتالي أدت الحملات الصينية الى قيام سلم بحري دائم في بحر الهند ، والى قيام اتفاق ضمني مبني على الأمر الواقع ، حفظ مصالح جميع البلدان الساحلية ·

ثالثاً ـ نصوص ماهوان عن هرموز وظفار وعدن ومكة

آ ـ بلاد هرموز(١١) :

اذا انطلقت السفينة من بلاد كولي (كاليكوت) ، واتجهت الى الشمال الغربي ، تصل الى بلاد هرموز بعد سفر خمسة وعشرين يوماً بريح مولمة(١٢) · وتقع عاصمة البلاد قرب البحر وعلى سفح الجبال ·

وتأتي الى هرموز سفن من جميع البلدان · ويجيء اليها تجار أغراب يسافرون في البر ، ويذهبون جميعاً الى السوق ويشتركون في البيع والشراء · لذلك أهل هذه البلاد أثرياء(١٣) ·

ويدين ملك هرموز وأهلها بالاسلام · وهم وقورون ودقيقون وراسخو الايمان · يصلّون خمس مرات في اليوم ، ويتوضؤون ويصومون · وتقاليدهم طاهرة وشريفة · وليس لديهم أسر فقيرة · واذا افتقرت أسرة من أسرهم ، وهبوا لها الثياب والغذاء والمال ، وأقالوا عثارها · وأوصالهم ووجوههم نقية ووسيمة ، وبنيتهم قوية ، وشكلهم جميل · وثيابهم وملابس رؤوسهم حسنة ومتميزة وأنيقة · ويطبقون مبادىء الاسلام في زواجهم ودفن موتاهم ·



واذا أراد رجل منهم أن يعقد زواجاً على امرأة ، أرسل وسيطاً يحدد بنود الاتفاق بين الطرفين • ثم تقيم أسرة العريس حفلة تدعو اليها الشيخ ـ ينفذ الشيخ أصول الشرع في الزواج ـ والمهتمين بالزفاف والوسيط والأقارب المسنين • وتخبر الأسرتان بعضهما بعضاً عن أصلهما ونسبهما لثلاثة أجيال • ومتى أنجز توقيع وثائق الزواج ، يحدد يوم تنفيذ العقد. فاذا لم ينفذ ، اعتبرت السلطة النكول عنه زنى واقتصت من المذنب •

واذا توفي رجل منهم ، ألبسوه ثوباً أبيض ، ثم أخذوا ابريقاً مليئاً بالماء النظيف ، وغسلوا جثمانه من الرأس الى القدمين مرتين أو ثلاث مرات • وبعد تطهيره ، يملؤون فمه وأنفه بالمسك والكافور • ثم يكفنونه ويضعونه على محمل ويدفنونه •

ويبنى القبر من مداميك حجارة ، ويفرش في أسفله خمسة أو ستة تسونات (ستة انشات تقريباً) من الرمل النظيف ، وينزلون الجثمان وحده فيه ، ثم يسقفونه بالحجارة ويردمون تراباً فوقه •

ويستخدم أهل هرموز السمن في غذائهم ، ويخلطونه ويطبخونه مع طعامهم ويبيعون في الأسواق لحم الغنم مشوياً وغيره من اللحوم ، وفراريج مشوية وفطاير وهرايس وجميع مآكل الحبوب • ولا تطبخ بعض الأسر القليلة العدد المؤلفة من شخصين أو ثلاثة ، بل تشتري طعامها من السوق •

ويسك ملكها عملة فضية تسمى ديناراً ، قطرها ستة فنات (سبع انش) وعلى ظهرها كتابة • ووزنها أربعة فنات (٠,٠٤٧٩ آونسة) ، وتداولها عام •

ويكتبون خطوطهم بالأحرف العربية •

وتضم أسواقهم جميع أنواع المخازن ، وفيها جميع أصناف السلع • لكن ليس لديهم خمارات ، لأن من يشرب الخمرة يقضي القانون باعدامه •

ويتفوق فيها الموظفون المدنيون والعسكريون والأطباء والمنجمون على أمثالهم في البلدان الأخرى • وفيها خبراء في جميع الفنون والمهن •

ولا شيء غير مألوف في شعوذاتهم وبهلوانياتهم ، سوى تسلق الماعز عموداً خشبياً • فهذا العرض طريف الى أقصى حد • ويستعملون فيه عموداً يبلغ طوله حوالي شنغ واحد (١٠ أقدام وانشان) • ولا يتسع رأس العمود الا لوضع أظلاف الماعز الأربعة • ويركزون العمود في الأرض ، ويثبتونه • ثم يقود رجل جدياً أبيض ، ويصفق بيديه ، وينشد أغنية رتيبة ، فيثب الجدي على دق الطبل ويقترب من العمود •

وبعد ذلك ، يضع الجدي قائمتيه الأماميتين على العمود ، ثم يقفز بسرعة ويضع قائمتيه الخلفيتين عليه • عندئذ ، يتناول الرجل عموداً آخر ، ويميله قدام قوائم الجدي ، فينقل الجدي قائمتيه الأماميتين ويضعهما على رأس العمود المائل ، ويرفع قائمتيه الخلفيتين بعجلة ويثبت الرجل هذا العمود الثاني • فيصبح الجدي واقفاً على أعلى العمودين ،



ويعرض وضعات ويقوم بحركات رقص ٠ويتناول الرجل عموداً ثالثاً ٠ ويضيف خمسة أو ستة أطوال متتالية حتى الأعلى فيزيد الارتفاع حوالي شنغ واحد (أي يصبح تقريباً ٢٠ قدماً) ٠ ومتى انتهى الجدي من الرقص ، يقف على العمود الأوسط الذي يدفعه الرجل ويتلقى الجدي بين يديه ٠

ثم يأمر الجدي أن ينبطح على الأرض، ويتظاهر بالموت ، فيفعل ٠ ويأمره أن يمد قائمتيه الأماميتين ، فيمدهما ، ثم قائمتيه الخلفيتين ، فيطيع أيضاً ٠

عندئذ يأتي رجل يجر وراءه حماره الأسود العريض الذي يبلغ علوه حوالي ثلاثة شيحات (٣٦،٧ انش) ٠ ويعرض ألعاباً بارعة بطرقشتى ، ثم يطلب من أحد الحضور أن يأخذ منديلا ويطويه عدة مرات ويعصب به بشدةعيني حماره ٠ ويطلب من رجل آخر أن يضرب الحمار خلسةعلى رأسهويختبىء بين المشاهدين٠ بعد ذلك ، ينزع الرجل العصابة عن عيني الحمار ويطلب منه أن يفتش عن الشخص الذيضربه على رأسه ٠ فمهما كان عدد الجمهور كبيراً ، يذهب الحمار رأساً الى الرجل الذيضربه ، ويشير اليه ٠ فهذه اللعبة من أعجب الأمور ٠

وينطوي مناخ هرموز على فصل باردوفصل حار ٠ وتتفتح الزهور في الربيع ، وتتساقط الأوراق في الخريف ٠ ويحصل صقيع عندهم لكن لا تثلج ٠ ومطرهم نادر لكن نداهم غزير ٠

وعندهم جبل واحد كبير ، تؤخذ من سفوحه الأربعة أربعة مواد ٠ فمن أحد السفوح يستخرج ملح يشبه ملح البحر ، لونه أحمر ٠ويقتلع أهل هرموز قطع الملح بمجرفة حديد مثلما تقتلع الحجارة ٠ ويزن بعضها ٣٠ أو ٤٠ شين (٣٠ شين = ٤ ، ٣٩ ليبرة) ٠ ولا رطوبة في هذا الملح ويطحن مسحوقاً قبل استهلاكه ٠ ويؤخذ من السفح الثاني تراب أحمر لونه كلون الزنجفر ٠ ويعطي السفح الثالث تراباً أبيض كالكلس تطرش به الجدران ٠ وفي السفح الرابع تراب أصفر يشبه لونه نبات الكركم ٠

في جميع الأحوال ، يشرف مسؤولون على مقالع ذلك الجبل ٠ ويأتي التجار من جميع الأقطار لشراء هذه المواد وبيعها ٠

ومن محاصيل أرضهم الرز والقمح لكن بمقادير ضئيلة ٠ ويشريان أيضاً من أماكن متفرقة ، وينقلان الى هرموز حيث يباعان بأسعار زهيدة الى أقصى حد ٠

وعندهم من الثمار والخضار ، الجوز واللوز والصنوبر والرمان والأعناب والدراق المجفف ، والتفاح والتمور والبطيخ الأخضر والخيار والبصل والكراث والقفلوط والثوم والبطيخ الأصفر وغيرها ٠ ويكثر عندهم الجزر الأحمر ، ويبلغ حجمه حجم جذور النيلوفر ٠ والبطيخ الأصفر كبير جداً وعلو بعضه ٢ شيح (٤ ، ٢٤ انش) ٠ وقلب جوزهم أبيض ٠ وقشره رقيق يكسر باليد وطول حبة الصنوبر حوالي تسون واحد (١،٢ انش) ٠

وأعنابهم ثلاثة أو أربعة أصناف · يشبه أحدها التمر الجاف ، ولونه أرجواني · والصنف الثاني بحجم بزرة النيلوفر ، لا بزرة فيه ويجفف · والصنف الثالث بحجم حبة الفاصولياء البيضاء ولونه أبيض · ويشبه لوزهم الجوز · وهو مروّس وطويل وأبيض ، وللبه نكهة ألذ من نكهة الجوز · وحجم رمانهم بحجم كأس شرب الشاي · وحجم تفاحهم بحجم قبضة اليد ، وهو لذيذ وله أرج ·

والتمور الفارسية عندهم على ثلاثة أصناف أيضاً · يسمى النوع الأول الدشب ، وحبته بحجم الابهام وعجوته صغيرة · ويربى مثل سكر النبات ، وحلاوته عالية جداً ، فلا يستساغ أكله · ويهرس النوع الثاني ويحول الى ٢٠ أو ٣٠ قطعة كبيرة ، وله طعم مثل طعم البرسيمون المجفف الجيد والتمر الممتاز · ويشبه النوع الثالث العناب ، الا أنه أكبر منه ومذاقه حامض ويقدم علفاً للحيوانات ·

وتجلب الى هرموز جميع السلع النفيسة من جميع الجهات ·

ولديهم يواقيت زرقاء وحمراء وصفراء، والذراح والزمرد وجواهر « عيون القط » والماس واللؤلؤ الكبير بقدر حبة الايدع ووزنه شين واحد وفنان أو ثلاثة (٦٩ قمحة) والمرجان ــ عقود وأغصان وجذوع ــ والعنبر الأصفر وحب العنبر وخرز المسابح ، والعنبر المائع والعنبر الأسود (الأصهب) وأواني اليشب والكريستال وعشرة أصناف من قطع المخامل المطرزة والمزهرة (طول زئبرها فن أو فنان ، طولها شنغهان والعرض شنغ واحد : ١ فن = ١ر٠ انش ، ١ شنغ = عشرة أقدام وانشان) ، ونسيج صوف من جميع الأصناف ، والسحل ، واللباد ، والكريب ، والكريب المزأبر ، والشاش المزأبر ، وجميع أنواع المناديل الأجنبية المطرزة بالحرير الأزرق والأحمر وغيرها · وتباع كل هذه السلع في هرموز · وعندهم كثير من الابل والخيول والبغال والثيران والماعز ·

وماعزهم أو غنمهم أربعة أجناس · الجنس الأول ضخم الالية ، ويزن الحيوان الواحد منه ٧٠ ــ ٩٠ شين (٩٢ ليبرة) ، ويزيد عرض اليته عن شيح واحد (١٢،٢ انش) ، وتنجر على الأرض ، وتزن أكثر من ٢٠ شين (٢٦ر٣ ليبرة) · وللجنس الثاني ذنب كذنب الكلب ، ويشبه ماعز الجبل ، ويزيد طول اليته عن شيحين (٢٤ر٤ انش) · والنوع الثالث العنز الناطح ، وعلوه شيحان و ٧ أو ٨ تسون (٣٣ انش) · وشعره طويل وينجر على الأرض في مقدمته ، وهو نظيف في مؤخرته · ويشبه برأسه ووجهه وعنقه وجبهته الغنم · وتنعكف قرونه وتستدير نحو جبهته ، ويعلق بها جرس حديد صغير يسمع صوته عند مشي الحيوان · ويبتهج هذا الجنس بطبيعته عندما يناطح · ويربيه هواة النوادر في بيوتهم ليناطح ماعز غيرهم ويراهنون عليه بالمال ·

ويعيش في بلاد هرموز نوع من الحيوان يسمى الوشق · وحجمه بحجم القط الكبير · وجسمه مرقط تماماً كذيل السلحفاة والذراح ·· وأذناه مروستان وسوداوان · وهو وحشي لكنه لا يؤذي · واذا رأته الأسود أو الفهود أو غيرها من الوحوش سجدت أمامه على الأرض لأنه ملك الحيوانات ·



وأخذ ملك هرموز مركباً أيضاً ، وحمّله أسوداً وزرائف وخيولا، ولآلىء وحجارة كريمة وغيرها ، وذكرى لعرش الصين مكتوبة على ورق من ذهب • وأرسل رسله الذين صحبوا مراكب الكنوز التي بعث بها الامبراطور ، وكانت عائدة الى الصين من المحيط الغربي ، وذهبوا الى عاصمة الصين وقدموا هداياهم •

٢ ـ بلاد ظفار(١٤) :•

اذا انطلقت السفينة من كولي (كاليكوت) ، وسارت في الاتجاه الشمالي الغربي بريح مولمة ، تصل الى ظفار بعد مضي عشرة أيام بلياليها(١٥) • وتقع هذه البلاد قرب البحر وعلى سفح الجبال ولا تمتلك أي مدينة مسورة ولا أرباضاً وتحدّها الجمة في جنوبها الشرقي ، وسلاسل الجبال في شمالها الغربي •

ويدين ملكها وجميع أهلها بالاسلام • وأوصال رجالها طويلة وعريضة ، وقوامهم فارع وبدين • ويمتازون بصدق وعودهم •

ويتعمم ملكها بعمامة بيضاء نفيسة أجنبية ، ويرتدي عباءة تغطي رأسه ، مطرزة بالحرير النفيس ، ومزهرة برسوم عرضها عرض الابهام ، أو يلبس ثوباً مطرزاً بالذهب. وينتعل جزمات أجنبية أو أحذية جلدية مروّسة ومسطحة المقدمة •

ويجلس الملك في محفة أو يركب جواداً اذا أراد التجول في المدينة • وتتقدمه وتتبعه صفوف من الفيلة والابل وفرق الخيالة، وجنود مشاة يحملون سيوفهم ودروعهم • ويسير الجميع في حشد كثيف ينفخون في الصفارات والمزامير •

ويغطي أهل البلاد رؤوسهم بالعصائب، ويرتدون ثياباً طويلة ، وينتعلون الجزم أو الأحذية •

وفي يوم العبادة (الجمعة) ، تتوقف التجارة في الأسواق قبل الظهر • ويتوضأ جميع الناس ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً • ثم يتناولون ماء الورد أو العود الثقيل والزيت ، ويمسحون بها وجوههم وأوصالهم • ويرتدون ثياباً نظيفة مغسولة من فترة قصيرة • ويأخذون مبخرة فخار صغيرة ، ويشعلون شيئاً من العود الثقيل والصندل والعنبر وغيرها من البخور ، ويضعونه في المبخرة ، ويبخرون ثيابهم وأوصالهم • ثم يذهبون الى الجامع ليتعبدوا • ويعودون الى منازلهم بعد الصلاة مباشرة ، فينتشر عبير عطرهم في أزقة الأسواق التي يمرون فيها ، ويبقى بعض الوقت •

ويطبق أهلها الأعراف الاسلامية في طقوس زواجهم ودفن موتاهم •

وتنتج أرضهم اللبان(١٦) • وهو في الحقيقة صمغ شجر يشبه شجر الدردار ، الا أن ورقه شوك وطويل • ويجرح أهل ظفار هذا الشجر ويجمعون نسغه ويبيعونه •

وبعد ما وصلت مراكب الكنوز الصينية الى ظفار ، وتمت تلاوة الارادة الامبراطورية وتقديم الهدايا الصينية ، أرسل ملكها رسله الى جميع الجهات ليخبروا أهل بلاده بأن يأتوا

باللبان ودم الأخوين(١٧) والقاطر والمر والميعة والاصطرك السائل • فجاؤوا ليقايضوها بنسيج الحرير القنبي والأواني الخزفية وغيرها من السلع الصينية •

ويشبه مناخ هذه البلاد مناخ الشهر القمري الثامن والتاسع ، فلا برد فيها البتة •

ويتوفر في هذه البلاد الأرز المقشور وغير المقشور والقمح والقطاني والذرة البيضاء والصفراء ، بزور القنب ، وجميع أنواع الخضار والقرع • وعندهم ثيران وماعز وخيول وحمير وقطط وكلاب ودواجن وبط •

ويأوي النعام الى جبالهم • ويصطاده بعض السكان ويبيعونه • ولهذا النعام جسم عريض وعنق طويلة • وهو يشبه الكركي (الغرنوق) • ويبلغ علو رجليه ثلاثة أو أربعة شيحات (٣ = ٧ ، ٣٦ انشاً) • وله في كل رجل أصبعان فقط • ويشبه ريشه وبر الجمل • ويأكل البازلا الخضراء وما يشاكلها • ويمشيء مشية الابل ، لذلك يسمى أحياناً الدجاجة الجمل •

أما ابلهم فبسنام واحد ، وعندهم ابل بسنامين • ويركب جميع الناس الابل عندما يذهبون الى الأسواق • واذا أشرفت ابلهم على الهلاك ، ذبحوها وباعوا لحمها •

ويسك الملك عملة ذهبية تسمى تنكا ، تزن القطعة الواحدة منها شينين (٠,٢٣٩٨٣ ليبرة) • وقطرها تسون واحد وخمسة فنات (٨ر١ انش) • وعلى أحد وجهيها صورة انسان وعلى الوجه الآخر كتابة • ويسك أيضاً عملة نحاسية صغيرة ، وزن القطعة منها ثلاثة ليان (١،٧ قمحة) وقطرها أربعة فنات (٤٨ر٠ انش) من أجل الصفقات التجارية البسيطة •

وفي اليوم الذي غادر مبعوث الصين ظفار ، بعث ملكها بزعيم حمل لباناً ونعاماً وأشياء أخرى ، وأبحر في مركب الكنوز ليقدم الاتاوة لبلاط الصين(١٨) •

٣ ــ بلاد عدن(١٩) :

اذا أقلعت السفينة من بلاد كولي (كاليكوت) ، واتجهت الى الغرب ، تصل الى عدن بريح مولة في غضون شهر قمري(٢٠) • وتقع هذه البلاد قرب البحر وتبتعد كثيراً عن الجبال •

وعدن غنية ومكتظة بالسكان ، ويدين جميع أهلها بالاسلام ، ويتكلمون اللغة العربية ، ويميلون الى الغطرسة •

ولديهم جيش قوي قوامه سبعة آلاف أو ثمانية آلاف رجل بين خيالة ورجالة ، حسني التدريب • اذن هذه البلاد منيعة جداً وتخشاها الدول المجاورة لها •

وفي العام التاسع عشر من حكم يونغ لو(٢١) ، أمر هذا الامبراطور أن يحمل « لي » ، مبعوثه العظيم وكبير الخصيان ، وغيره مرسوماً سامياً ، ويمنح ملك عدن وزعماءها كسوة

وعمامة . فلما وصلوا الى سومنتالا(٢٢) ،انقسم الأسطول الصيني ، وقصد الخصي شو عدن وبامرته مراكب كنوز عديدة ، وبلغها .

وعندما سمع ملك عدن بوصول المبعوث الصيني ، خرج الى الشاطىء يصحبه أعيان كبار وصغار ، واستقبله ، وقبل المرسوم الأمبراطور وسُر بالهدايا الصينية ، وأقام له حفلة ترحيب في قصره بكل احترام وتواضع(٢٣) .

وبعد الانتهاء من تلاوة الارادة الأمبراطورية ، أصدر ملك عدن أمراً الى أهل بلاده يسمح فيه لمن يمتلك سلعاً ثمينة أن يبيعها أو يقايضها . وهكذا استطاع الصينيون آن يشتروا الجواهر الكبيرة المسماة « عيون القط »(٢٤) ، التي تزن الواحدة منها حوالي شينين (١١٥ قمحة) وجميع أنواع اليواقيت والحجارة الكريمة النادرة واللآلىء الضخمة ، وكثيراً من جذوع شجر المرجان التي يبلغ طولها شيحين (٢٤،٤ انش) . وملأوا خمسة صناديق بأغصان المرجان وأشياء أخرى مثل العنبر الأشهب وماء الورد . وابتاعوا زرائف وأسوداً وحمر الزرد ونموراً مرقطة ونعائم وحماماً أبيض ، ونقلوا جميع ذلك الى الصين .

ويتعمم ملك عدن بعمامة ذهبية ، ويرتدي ثوباً أصفر ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر . وعندما يحل يوم الصلاة(= الجمعة) ويذهب الى الجامع ، ليصلي ، يبدل هندامه ، ويعصب رأسه بعصابة بيضاء ناعمة أجنبية ، ويضع فوقها منديلا مطرزاً بالذهب . ويرتدي ثوباً أبيض . ويتجه الى الجامع راكباً عربة وتصحبه تجريدة من الجنود .

ولكل من أعيان عدن عمامة وثياب خاصة حسب مكانته الاجتماعية .

ويختلف لباس الرجال في هذه البلاد عن لباس النساء . فالرجال يتعممون ، ويرتدون سحلا من القطن أو ثوباً من الصوف أو من الحرير القنبي المطرز الأنيق أو أمثالها من الأكسية . ويلبسون بأرجلهم جزماً أو أحذية .

أما النساء فيرتدين كساء طويلا ، ويضعن صفاً من الحجارة الكريمة واللآلىء حول أعناقهن وعلى أكتافهن ، فيشبهن الهة الرحمة كوان يين بلباسهن . ويعلقن بآذانهن أربعة أزواج من الدوائر الذهبية المرصعة بالحجارة الثمينة . ويلبسن خواتم في أصابع أرجلهن ويغطين رؤوسهن بخمار حرير مطرز لا يظهر منه الا وجههن .

وجميع من يصوغ حلى خالصة من الذهب والفضة ويرصعها ، يصنع أروع وأدق المصاغات التي ليس لها مثيل في العالم .

وعندهم أسواق وحمّامات عامة ومطاعم ومخازن تبيع حريراً وأقمشة حرير وكتباً وسائر السلع . وهذه كلها متوفرة لهم .

ويسك الملك عملة من الذهب الأحمر تسمى فولولي(٢٥) ، وتزن القطعة منها شين واحداً (٥٦ ، ٥٥ قمحة) ، وترى على ظهرها كتابة واضحة . ويسك أخرى من النحاس تسمى فلوساً من أجل دفع ثمن الصفقات الصغيرة .

ومناخ هذه البلاد حار دوماً مثل مناخ الشهر القمري الثامن والتاسع .



ويحدد أهل عدن الأيـام والشهور بـلاكبس شهر ، ويقسمون سنتهم الى اثني عشـر شهراً • وليس لديهم أشهر طويلة وأشهر قصيرة• ومتى رأى أولو الأمر منهـم الهلال في آحد الليالي ، بدأ أول الشهر من اليـوم التالي •الا أن تواريـخ بدء الفصول الأربعـة ليست ثابتـة •

ولديهم علماء هيئة يحسبون بدء الفصول• فيحددون مثلا أحد الأيام لبدء الربيـع ، فتتفتح الأزهار فعلا في ذلك اليوم • ويعيّنون أحد الأيام لمطلع الخريف ، فتتساقط أوراق الأشجار فيه • ويحددون بدقة أوقـات حدوث الظواهر الجوية والبحريـة ، مثل الكسـوف والخسوف والمد وهبوب الرياح وهطل المطـر والبـرد والحر •

أما فيما يتعلـق بالأطعمة والأشربـة ،فعندهم جميع أنواع دقيـق الرز والقمـح • ويخلط أناس كثيرون منهم الحليب والقشـدة والسمن والسـكر والعسـل ويأكلون هـذا المزيـج •

ويتوفر لهم الأرز المقشور وغير المقشور وأصناف الفاصوليـاء والحبـوب والشعـير والسمسم وسائر الخضـار • أما الثمـار ،فعندهم منها أصنـاف مثل التمـور الفارسية والصنوبر واللوز والتفاح والرمان والدراق والمشمش والزبيب والجوز •

ولديهم فيلة وابل وحمير وبغال وثيران وماعز ودجاج وبط وقطط وكلاب • لكن ليس لديهم خنازير أو أوز • وليس لغنمهم قرون ،وصوفـه أبيض ، وعلى رأسـه هلبتان مـن الصوف الأسود تشبهان خصلتي الشعر عـلى رأس الطفل الصيني ـ ، وله كيس تحت العنق مثل الثور • وصوفه قصير مثل الكلاب • وذنبه كبير بقدر طست الغسيل •

وتبنى منازل أهل عدن بمداميك الحجارة ، وتسقف بالآجر والتراب • وتشاد أحياناً ثلاثة طوابق من الحجارة يبلغ علوها أربعـة أو خمسة شنغات (٤ = ٤٠ قدماً و ٩ إنشات). وقد يصنعون هيكلا خشبياً للطوابق، ويأخذونه عندئذ من الصندل الأحمر المحلي •

وعندهم من الأشجار والنبات ورد ماء الورد وزهور المغنوليا وكرمة الزبيب الأبيض الخالي من البزور •

ولديهم الحمر المحلقة والنعـام الأبيض المرقط وغنم بلا قرون ضخم الالية • وتشبه الحمر المحلقة البغـال ، وجسمهـا ووجههـا أبيضان • وتظهر خطوط سوداء دقيقة جـداً عند حاجبيها ثم تنتشر على جميع جسمها حتى حوافرها • وتتخذ هذه الخطوط شكل أشرطـة متباعدة ، وتبدو وكأن التخطيط الأسود قـد رسم فوق الجسم رسماً • وللنعـام خطـوط سوداء مثل خطوط الحمر الوحشية •

وللزرافة قائمتان أماميتان يزيد طولهما على تسعة شيحات (١ر١١٠ انش) ، وقائمتان خلفيتان طولهما حوالي ستة شيحات (٤ر٧٣انش) • وتحمل الرأس رقبة طويلة طولهـا شنغ واحد وستة شيحات (١٦ قدماً و ٣ انشات) • ولا يستطيع الانسان أن يمتطيهـا لأن

مقدمتها عالية ومؤخرتها منخفضة • ولها على رأسها قرنان من اللحم ، ولها ذنب ثور ، وجسم غزال • وفي حافرها ثلاث أصابع ،وفمها رقيق مسطح • وهي تأكل رزاً غير مقشور وفاصوليا وفطاير دقيق •

ولأسدهم جسم يشبه جسم النمر في الشكل ، ولونه أصهب ، بلا تخطيط • ورأسه كبير ، وفمه عريض • ويستدق ذنبه تدريجياً حتى نقطة يكتسي فيها بكتلة من الشعر الأسود الطويل ، مثل الهلبة • ويشبه صوت زئيره الرعد • وعندما تراه سائر الحيوانات تنبطح على الأرض ولا تجرؤ على النهوض • فهو حقاً ملكها •

وكان ملك عدن ممتناً للطف الأمبراطور • فصنع نطاقين من الذهب مرصعين بالجواهر ومنديلا ذهبياً مرصعاً باللآلىء والحجارة الثمينة ، اضافة الى اليواقيت وغيرها من الحجارة الكريمة وبوقين محليين ، وتذكار للعرش مكتوب على ورق من ذهب • وقدم جميع هذه الهدايا لأمبراطور الصين •

٤ ـ بلاد المربع السماوي(٢٦) أي مكة :

هذه البلاد بلاد مكة • اذا انطلقت السفينة من كولي (كاليكوت) ، وسارت في الاتجاه الجنوبي الغربي ، تصل ، بعد مضي ثلاثة أشهر قمرية ، الى بندر البلاد الذي يسمى جدة • وفي جدة زعيم كبير يديرها • ويذهب المرء الى الغرب (الصحيح الى الشرق) ويسير يوماً من جدة ، فيصل الى المدينة التي يسكنها الملك(٢٧) وتدعى مكة •

ويدين أهلها بالاسلام • فقد قام فيها رجل قديس عرض معتقده ونشر تعاليمه فيها • ولا يزال أهل هذه البلاد حتى الآن يطبقون مبادىء الاسلام في أعمالهم ، ولا يجيزون لأنفسهم أن يحيدوا عنها قيد شعرة •

وهم طوال القامة ، أقوياء البنية، وسيمو الهيئة ، ولون أوصالهم ووجوههم ضارب الى اللون الأرجواني الكامد جداً •

ويتعمم الرجال ، ويرتدون ثياباً طويلة ، ويلبسون أحذية جلدية بأرجلهم • وتلبس النساء الحجاب ، ولا يشاهد أحد وجوههن •

ويتكلمون اللغة العربية • ويحظر قانون البلاد شرب الخمر • وتقاليدهم سلمية ورائعة • وليس عندهم أسر فقيرة • ويطبقون جميعاً مبادىء دينهم • ولا يخالف القانون الا أناس قلائل • فهم يعيشون في الحقيقة في أسعد بلاد •

ويطبقون أصول الدين في طقوس الزواج ودفن الموتى •

واذا استأنف المرء السفر نصف يوم ونيفاً ، وصل الى حرم البيت السماوي ، واسمه الكعبة •

ويحيط به جدار له ٤٦٦ باباً ، وعلى جانبي الأبواب ، ترتفع عواميد مصنوعة من اليشب بكاملها وعددها ٤٦٧ عموداً ، منها ٩٩ في الواجهة ، و ١٠١ في الخلف ، و ١٣٢ على اليسار ، و ١٣٥ على اليمين ·

وقد بُني البيت بمداميك من خمسة أحجار ملونة · وشكله مربع وأعلاه مسطح · وفي داخله تتألف الأعمدة من خمسة أسهم كبيرة من العود الثقيل ومن رف من الذهب الأصفر· وقد بنيت كل الجدران من غضار ممزوج بماء الورد والعنبر الذي يفوح منه عبير دائم · وتغطي البيت كسوة من الحرير ·

وفي كل سنة ، في اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر القمري ، يأتي مسلمون غرباء ـ بعد سفر طويل يستغرق سنة أو سنتين في حالات قصوى ـ ويحجون البيت ويصلّون فيه · ويقتطع كل حاج قطعة من الكسوة تذكاراً قبل أن يعود الى بلده · وعندما تخلص الكسوة توضع كسوة جديدة محلها تجهز من قبل · ويحدث ذلك عاماً بعد عام على مر الزمن ·

ويقع قبر اسماعيل على يسار البيت ، وهو من أولياء الله · وقبره مصنوع كله من الزمرد الأخضر · وطوله شنغ واحد وشيحين (١٢ قدماً وانشان) ، وعلوه ثلاث شيحات (٣٦ر٧ انش) وعرضه خمس شيحات (٦١ر٢ انش) · ويحيط بالقبر جدار مبني من مداميك من التوباز الأرجواني يبلغ علوها خمسة شيحات ونيفاً (٦١ر٢ انش) ·

وبنيت أربع مآذن في زوايا البيت الأربع. ويصعد المؤذنون في أوقات الصلاة اليها وينادون على الصلاة ويؤذنون · وتقع أروقة الأئمة الأربعة على جانبي الحرم على اليمين وعلى اليسار · وهذه الأروقة مبنية أيضاً من مداميك حجارة ومزخرفة على أجمل وجه ·

أما مناخ هذه البلاد فحار في الفصول الأربعة مثل الصيف · وليس فيها مطر ولا برق أو صقيع أو ثلج · الا أن الندى غزير جداً في الليل ، وتعتمد جميع النباتات والأشجار عليه في حياتها · ولو وضع المرء وعاء فارغاً في الليل وأبقاه حتى الفجر ، فسوف تبلغ فيه سماكة الماء ثلاث فنات (٣ر٠ انش) ·

أما فيما يختص بمحاصيل الأرض فالأرز والحبوب نادرة. ويزرع جميع الأهالي الأرز والقمح والدخن واليقطين والخضار والبطيخ الأخضر والأصفر، ولا بد من شخصين أحياناً لنقل البطيخة الواحدة · وعندهم أيضاً نوع من الشجر زهره مفتول ، يشبه شجر التوت الكبير في الصين ، وعلوه شنغ أو اثنان (شنغ = ١٠ أقدام وانشين) · ويزهر هذا الشجر مرتين في العام · ويعمر طويلا قبل أن ييبس · ومن محاصيلهم اللفت والتمر الفارسي والرمان والتفاح والاجاص الكبير والدراق · ويزن بعضه أربعة شينات أو خمسة (٤ = ٢ر٥ ليبرة) ·

ولديهم كثير من الابل والخيل والحمير والبغال والثيران والماعز والقطط والكلاب والدواجن والأوز والبط والحمام · ويزن بعض الدجاج والبط أكثر من عشرة شينات (١٠ = ١ر١٣ ليبرة) ·

وعندهم ماء ورد وعنبر وزرائف وأسودونعام وغـزلان ووشق وأصنـاف الحجـارة الكريمة واللآلي والمرجان ٠

ويسك الملك من الذهب عملة تنكا الشائعة في التداول ٠ ويبلغ قطر القطعة الواحدة منها سبع فنات (٨ر٠ انش) ، ووزنها شين واحد (٣ر٧٣ غرام) ٠ واذا قارناهـا بذهب الصين فهي أنقى منه بنسبة ٠,٠٢٠ ٠

واذا ذهب المرء الى جهة الغرب ، وساريوماً واحداً ، وصل الى بلدة اسمها المدينـة (الاتجاه والمسافة خطأ : ٣٠٠ ميل وعشـرةأيام) ٠ وفيها قبر النبي محمد ٠ ويرتفع من القبر حتى اليوم ليلا نهاراً ، نور سـاطع ، يخرج من أعلاه ويدخل في السحاب ٠ وتقـع وراءه بئر فيها ماء عذب ، تسمى زمزم (زمزم في مكة لا في المدينة) ٠ ويأخذ السفار هـذا الماء ويختزنونه في مراكبهم ٠ فاذا أصابهـم اعصار في البحر ، رشوا منه فوق الماء ، فتسكن الريح والأمواج ٠

وفي العام الخامس من حكم الأمبراطـورهسوان ، وصل أمر من البلاط يأمر المبعوث الرئيسي شنغ هو كبير الخصيان أن يذهب الى جميع البلدان الأجنبية ليتلو أوامر الأمبراطور ويسلم هداياه ٠

وعندما وصل قسم من الأسطول الى كاليكوت ، لاحظ كبير الخصيان هونغ أن سفّار مكة يصلون الى كاليكوت ، فاختار ترجمانـاً وسبعة سفراء آخرين ، وأرسلهم الى مكـة مع حمل من المسك وأصناف خزف وأشياء أخرى ٠ وصعد المبعوثون في مركب مكة وقصدوها ٠ واستغرقت سفرتهم سنة كاملة ذهاباً واياباً ٠٠

واشترى الصينيون جميع أصناف الحاجات والنفائس ، منها الزرائف والأسود والنعام ٠ ثم انهم رسموا صورة دقيقة للحرم الشريف وعادوا الى عاصمتهم بكين ٠

وأرسل ملك بلاد مكة مبعوثين حملوا معهم سلعاً محلية ، ورافقـوا المبعوثـين الصينيين السبعة ، الذين جاؤوا الى مكة ، وقدّم سفراء مكة هداياهم الى البلاط الصيني في الصين ٠ »

رابعاً ـ أقوال ماهوان عن العرب والمسلمـين خارج جزيرة العرب :

آ ـ في بلاد كاليكوت(٢٨) :

« وفي خدمة الملك زعيمان مسلمان يديران شؤون البلاد ٠

وتدين أكثرية أهل هذه البلاد بالاسلام ٠ وعندهم عشرون أو ثلاثون مسجداً يؤمونها للصلاة مرة في الأسبوع ٠ ومتى حل يوم الصلاة ، تصوم كل الأسرة ، وتتوضأ ، ولا تعمـل شيئاً آخر ٠ ويذهب الرجـال والشباب الى الجامع ليصلّوا قبل الظهر وبعده ٠ ويتفرقون بعد صلاة الفجر ، ويعودون الى منازلهم ٠ ثم يزاولون أعمالهم التجارية ويديرون شؤونهم البيتيـة ٠



وهـؤلاء الناس شـرفاء وأهل للثقــة • ويتميزون بأناقتهم ونعومتهم ولباقتهم • وتلقى الزعيمان المسلمان ترقية وهبات من بلاط البلاد الوسطى (الصين) » •

ب ـ في جزر مالديف ولاكديف(٢٩) :

« وفي بلاد نيه كان (مالديف ولاكديف) السلطان والزعمــاء والسـكان مسلمــون • وعاداتهم طاهرة وممتازة • وبالتالي ، يطبقون حدود دينهم ••• ويتقيــدون بمبادئــه في طقوس الزواج والمآتم » •

جـ ـ في كشي(٣٠) :

« وفي هذه البلاد خمس فئات من السكان ••• الفئة الثانية المسلمون ••• وتتبع كـل فئة طقوساً خاصة بها في الزواج والمآتم حسب معتقداتها الدينية » •

د ـ في جزيرة شمطرة :

« وفي سيموديرة العادات طاهرة وشريفة ، ويشبه كلامهم وكتابتهم وزواجهم ومآتمهـم ولباسهم ، ما هو شائع في ملاقة(٣١) •

« ويشبه كلام هذه البلاد ــ ناقور ــ وعاداتها ما هو شائع في ملاقة »(٣٢) •

« والعادات في هذه البلاد ــ عاروه ــ طاهرة وبسيطة • وطقوس الزواج والمآتم وسائر النواحي شبيهة بما هو شائع في جاوة وملاقة »(٣٣) •

« وتسكن ألفا أسرة ونيف في هذه البلاد ــ لمبري ــ وجميعهـم مسلمون وشرفاء جــداً وأذكياء ••• وملكهم مسلم أيضاً »(٣٤) •

هـ ـ في بــلاد ملاقة :

« وملك هذه البلاد وسكانها مسلمون ، يصومون ، ويكفِّرون عن ذنوبهم ، وينشدون المدائح النبوية »(٣٥) •

و ـ في بــلاد جــاوة :

« في هذه البلاد ثلاث طبقات • احداهــا طبقة المسلمين »(٣٦) •

هذا ما ورد على لسان ماهوان عن العرب والمسلمين في مطلع القرن الخامس عشر وهـو غيض من فيض • ففي المصادر الصينية الأخرى المزيد من هذه الأخبار التي تدل على انتشار حضارتهم وتقبل الشعوب لها • وهذه ناحيــة جديرة بالاهتمام والدراســة ومحاولة وصــل الماضي بالحاضر •

ابراهيــم خــوري

الحواشـي :

١ ـ لم يميز الصينيون البحر عن المحيط في القرون الوسطى. لكنهم قسموا البحار في جنوب بلادهم ، الى محيط غربي، وآخر شرقي ، يفصل بينهما خط متعرج يمر بجزيرة تاتان (طول ٠٩ ١١٨° شرقا) قرب مدخل بندر هسيامين (اموي)، وفي بروني (طول ٥٦ ١١٤° شرقا على ساحل جزيرة بورنيو الغربي) ، وفي جزيرة بليتونغ (طول ٢٠ ١٠٨° شرقا) ، والى شرق باجاجران في غرب جزيرة جاوة (طول ٥٨ ١٠٦° شرقا) ويضيفون اليهما المحيط الجنوبي. فالمحيط الغربي يعرف لديهم أيضا باسم المحيط الجنوبي الغربي ، ويغمر الشواطىء الشرقية من آسية القارية من تونكين الى جوهور ، وشاطىء باجاجران ، وشواطىء شمطرة الجنوبية والشرقية والشمالية ، وسيلان وكيلون وكاليكوت وبلاد العرب وبمبا • (في القرن الثاني عشر ، كان بحر العرب يدعى بحر العرب الشرقي • وكانت حوضة البحر المتوسط الشرقية تسمى بحر العرب الغربي ، وقد أهملت هاتان التسميتان في القرن الخامس عشر) • ويمتد المحيط الشرقي في عرفهم حتى اليابان ، ويدعى الى جنوبها المحيط الجنوبي الشرقي ، الذي يغمر شواطىء جزر ريوكيو ، وكييلونغ في فرموزة ـتايوانـ ، وبنغاستان قرب شاطىء جزيرة لوسون الغربي ، وجزر الملوك ، وبروني على ساحل بورنيو الغربي ، وجاوة ما عدا باجاجران • وكان مضيق فورموزة يسمى المحيط الشرقي الصغير ، والبحر الى شرق جاوة المحيط الشرقي الكبير • وكانوا يجعلون المحيط الجنوبي على تخوم المحيطين الغربي والشرقي ، ويمدونه شمالا حتى شمبا ، وشرقا حتى جزيرة لوسون ، وجنوبا حتى بالمبانغ • أما بعد هذه الأخيرة ، فيمتد المحيط الجنوبي الكبير بآلاف جزره ومنها جزيرة جاوة •

٢ ـ جاء في أخبار الصين والهند ، ص ١٧ ، فقرة ٣٦ : «والفقير والغني من أهل الصين ، والصغير والكبير ، يتعلم الخط والكتابة » • وورد في ص ٢١ فقرة ٤٨ : « وفي كل مدينة كتّاب ومعلم للفقراء وأولادهم • من بيت المال يأكلون »•

٣ ـ كانت الرحلة من كاليكوت الى جدة تستغرق ثلاثة أشهر بالريح المولة ، وهذا معروف عند أهل البحر • وبقيت البعثة ثلاثة أشهر في مكة : من صفر الى جمادى الأولى • وهذا يعني أن جميع أعضائها كانوا مسلمين •

٤ ـ يعود رهمانج فاسكوداغاما الى عام ١٤٩٨ ، وانتهاء ابن جزي من تدوين رحلة ابن بطوطة الى ١٣٥٦ (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، وكتاب وانغ ـ تا ـ يو وان ، المسمى « تاو ـ اي ـ شيه ـ لويه » الى ١٣٥٠ ، وكتاب فيي ـ هسين ، « الكامل في وصف سفينة الكوكب » الى ١٤٣٦ (تاريخ المقدمة) ، وكتاب كونغ شن ، « مدونات البلدان الغربية في المحيط الغربي » الى ١٤٣٤ (تاريخ المقدمة) • أما البندقي نيكولو دي كونتي ، فقد غادر بلده سنة ١٤١٩ ، وأقام في دمشق بعض الوقت ثم سافر الى جنوب آسية ، وعاد الى ايطالية سنة ١٤٤٤ ، وأملى أخباره على بوجيو براسيوليني ، أمين سر البابا أوجينيوس الرابع ، الذي دونها باللغة اللاتينية • أخيرا سجل ابن ماجد علم البحر سنة ١٤٦٦ م في حاويته •

٥ ـ ج• ف• ج• ميلز ، « الكامل في وصف سواحل المحيط » لـ ماهوان ، ص ١٠ وما يليها •

٦ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٧ •

٧ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٢ •

٨ ـ يقول المسعودي (ج ١ ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩) : « وكان الفرات ، الأكثر من مائه ، ينتهي الى بلاد الحيرة ، ونهرها بيّن الى هذا الوقت وهو يعرف بالعتيق ، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم ، وهي وقعة القادسية ، فيصب في البحر الحبشي (بحر الهند) • وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ، ترد الى ملوك الحيرة • وقد ذكر ما قلنا عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، قال له : ما تذكر ؟ قال : أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون • فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر برا ، فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة • ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا » •

٩ ـ ويقول أيضا في ص ١٥٨ ـ ١٥٩ : « وانحدر الى البصرة ، وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان ، وركب الى بلاد كلة ، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك • واليها

تنتهي مراكب أهل الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أهل الصين في مراكبهم • وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تاتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة • وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع التي ذكرنا الى ما هنالك• ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا ، التقى الفريقان جميعا في هذا النصف • ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب الصينيين الى مدينة خانفوه وهي مرسى المراكب على ما ذكرنا » •

١٠- يقول المسعودي عن خانفوه (ج ١ ، ص ١٥٦) : وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة ، يصب الى بحر الصين • وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة • تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز ، وتقرب الى مدينة خانفوه • وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس • وورد في ص ١٦١ : « وخرج هذا الرجل (القرشي) من مدينة سيراف وكان من أرباب البصرة وأرباب النعم بها وذوي الأحوال الحسنة • ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل يتحول من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، يخترق ممالك الهند ، الى أن صار الى بلاد الصين ، فسار الى مدينة خانفوه » •

١١- كانت مدينة هرموز واقعة في درجة عرض ٠٣ ، ٢٧° شمالا ودرجة طول ٢٧ ، ٥٦° شرقا ، على جزيرة تسمى جزيرة هرموز قرب مدخل خليج فارس • وكان أمير الأسرة المالكة فيها تابعا لحاكم فارس (الولاية) نظريا • وكان يدفع أتاوة الى السلطان شاهرخ (١٤٠٥ - ١٤٤٧ م) ، ملك الامبراطورية التيمورية التي ضمت فارس • أما عمليا ، فقد كان أمير هرموز مستقلا وقويا ، وتمتد سلطته على مائة ميل حول هرموز ، ونفوذه أوسع بكثير • وكانت هرموز مركزا تجاريا عظيما ، تنتهي اليه التجارة البحرية من الشرق الأقصى والهند والتجارة البرية من خراسان والعراق وفارس • وكانت فيها أرستقراطية مدنية وعسكرية غنية •

١٢- المسافة ٦١ ميلا بحريا • في عام ١٤٣٢ - ١٤٣٣ ، استغرق أسطول شنغ هو ٣٤ يوما ليبلغها أي انه سار بسرعة ٤٥ ميلا بحريا في اليوم •

١٣- بعد احتلال المغول لبلاد فارس ، تحولت طريق التجارة الرئيسة من الهند الى بحر الروم ، من خليج العرب الى بحر القلزم • ومع ذلك ، ظلت السلع الآسيوية تنقل من هرموز الى تبريز وطرابزون وسمرقند •

١٤- كانت ظفار مدينة على ساحل جزيرة العرب الجنوبي ، وهي الآن مقاطعة • وكانت مدينة القرون الوسطى تقع في المحل المسمى البلد (عرض ١٧٠٠° شمالا ، وطول ٠٦ ، ٥٤° شرقا) على حوالي ميلين من سلالة التي تعتبر أعظم مركز تجاري • ويمتد سهل ظفار على الساحل على طول ٢٧ ميلا من درجة طول ٥٦ ، ٥٣° الى ٢٥ ، ٥٤ شرقا • وكانت تشكل سلطنة صغيرة مستقلة في القرن الخامس عشر ، تكن لم تلعب دورا سياسيا وانحصرت أهميتها التجارية في تصدير الخيول العربية المطهمة والبخور • وهي مركز تجارة اللبان •

١٥- سفر سريع ، تقطع فيه السفينة ١٣٤ ميلا في اليوم ؟؟

١٦- اللبان صمغ أشجار قصيرة لا تنمو في جزيرة العرب الا في ظفار •

١٧- دم الأخوين صمغ شجرة تنمو في جنوب جزيرة العرب وافريقية الشرقية •

١٨- قام الخصي هونغ باو عام ١٤٢٢ م/٨٢٦ هـ باول زيارة صينية رسمية الى ظفار أثناء حملة شنغ هو السادسة •

١٩- عدن بندر اليمن على ساحل جزيرة العرب الجنوبي ، عرضها ٤٧ ، ١٢ شمالا ، طولها ٥٩ ، ٤٤ شرقا • لها ميناء ممتاز وموقعها على مفترق الطرق البحرية ، وتتحكم بمدخل البحر الأحمر وبطرق قوافله نحو الشمال • لذلك كله كانت مستودعا طبيعيا لبضائع التجار التي ترد اليها من افريقية الشرقية وآسية والى مضيق باب المندب وبحر القلزم منذ أقدم العصور • وكانت في مطلع القرن الخامس عشر المرفا الرئيس على الطريق البحرية الذاهبة من بحر الروم الى الهند والشرق الاقصى ، وتمتعت بازدهار عظيم في عهد بني رسول (١٢٢٩ - ١٥٥٤ م) في اليمن (عاصمتهم تعز) • وكانت قوة عدن هائلة ، وكان حاكمها يحكم جزيرة العرب الجنوبية الغربية حتى مكة ، وينازع مماليك مصر على السيطرة على مكة •

٢٠- أي انها تقطع ما يعادل ٦٢ ميلا بحريا في اليوم الواحد •

٢١ـ تاريخ الأمر الأمبراطوري ٣ آذار عام ١٤٢١ م/٨٢٥ هـ ٠

٢٢ـ سمودرة على شاطىء شمطرة الشمالي ٠

٢٣ـ كان مماليك مصر قد فرضوا سيطرتهم على نصف بحر القلزم ، ولعل ترحيب السلطان اليمني بالصينيين نابع من الرغبة باكتساب حليف يحتمل الاستفادة منه اذا أراد المصريون أن يتوسعوا في فرض هيمنتهم ٠

٢٤ـ حجارة كريمة صفراء وخضراء ٠

٢٥ـ اسم فارسي للعملة الذهبية ٠ يستعمله الأتراك ليدلوا على الدوكا البندقية ٠

٢٦ـ يشير الاسم الصيني الى الكعبة أو « البيت المكعب » ٠ فمكة مدينة الاسلام المقدسة ، التي يزورها الحجاج من جميع أنحاء العالم ، وتقع على حوالي ٥٥ ميلا الى شرق مرفا جدة ٠ عرضها ٢٩ ، ٢١° شمالا ، وطولها ١١ ، ٣٩° شرقا ٠ وكانت المنطقة بكاملها تدعى مكة ، وتمتد الى حوالي ٣٠٠ ميل شمالا الى المدينة ٣٥ ، ٢٤° شمالا) وينبع (٠٥ ، ٢٤° شمالا) وحوالي ٣٠٠ ميل أيضا حتى جيزان (٥٤ ، ١٦ شمالا) ٠ وكان شريف مكة في هذا الوقت تابعا لسلطان مصر (المماليك) ٠ ولم تكن له أهمية سياسية ، لكنه كان يدير الحجاز بسلطة الدين ٠ وليس لهذه البلاد قيمة اقتصادية ٠ الا أن الحج مناسبة لاجراء مبادلات تجارية ٠ وجاء في معجم البلدان الكعبة البيت المربع ٠

٢٧ـ عندما ذهبت البعثة الصينية من كاليكوت الى مكة عام ١٤٣٢ م/٨٣٦ هـ ، كان شريف مكة بركات بن حسن (١٤٢٥ ـ ١٤٥٣ م) ، وكان يتلقى كل سنة كتاب تعيينه وكسوته من مصر ٠

٢٨ـ ميلز ، ص ١٤٠ ٠

٢٩ـ المرجع ذاته ، ص ١٤٩ ٠ لعل سلطان ملي كان الحاج حسين ٠ اعتنقت هذه الجزر الاسلام منذ القرن الثاني عشر ٠

٣٠ـ ميلز ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ٠

٣١ـ ميلز ، ص ١١٩ ٠

٣٢ـ المرجع ذاته ، ص ١٢١ ٠

٣٣ـ المرجع ذاته ، ص ١١٤ ٠

٣٤ـ المرجع ذاته ، ص ، ١٣٢ ، ١٣٣ ٠

٣٥ـ المرجع ذاته ، ص ١١٠ ٠

٣٦ـ المرجع ذاته ، ص ٩٣ ٠

★ ★ ★